

سلسلة تراث الحضارة

(1)



معهد الشارقة للكتاب

٢٦

السعر بعد الخصم

الدور المصري

في

جنوب شبه الجزيرة العربية والشرق الإفريقي

الأستاذ **حرفوش مدني**

باحث ومدرس اتحاد المؤرخين العرب
القاهرة

الدكتور **بلقاسم رحباني**

أستاذ التاريخ بجامعة قسنطينة
الجزائر

مراجعة

الأستاذ الدكتور **سيد أحمد علي الناصري**

رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب

جامعة القاهرة

1997

الناشر

مكتبة / زهراء الشرق

ت / ٣٨٢٩١٩٢

اهداءات ١٩٩٨

مؤسسة الاسراء للنشر والتوزيع

القاهرة

سلسلة تراث الحضارة

(١)

الدور المصري

فى

جنوب شبه الجزيرة العربية والشرق الإفريقى

الأستاذ حرقوش مدنى
باحث وعضو اتحاد المؤرخين العرب
القاهرة

الدكتور بلقاسم رحمانى
أستاذ التاريخ بجامعة قسنطينة
الجزائر

مراجعة

الأستاذ الدكتور سيد أحمد على الناصرى
رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب
- جامعة القاهرة -

١٩٩٧

مكتبة زهراء الشرق

ت: ٣٩٢٩١٩٢

الإهداء

إلى الوالدین الصابرين طلباً للرضاء وتخفّضاً لجناح الذل من الرحمة.

إلى كل حملة مشاعل الثقافة والحضارة من أجل مستقبل تسترد فيه
كرامة الإنسان.

إلى كل مدافع عن فكرة ييقين وحماس ومنهجية وشاهر لسيف العلم
في وجه الجهيل والتخلف.

إلى الأستاذین الجليلین الأستاذ الدكتور سید أحمد یحیی الناصری
والأستاذ الدكتور سعید عبدالفتاح عاشور، أطال الله عمرهما وجعلهما ذخراً
للعلم والباحثین..

... نقدم هذا الكتاب ...

المؤلفان

مُتَكَلِّمًا

بعد البحث في التاريخ السياسى والإجتماعى والإقتصادى العربى الإفريقى القديم، ودراسة الجذور الأولى لحضارة المنطقتين من القضايا التى لا زالت تشغل أهتمام الكثير من المؤرخين والمتقنين فى إفريقيا والوطن العربى، الذين يريدون التعمق فى معرفة ماضيهما التاريخى ومنبتهم العرقى، وكذا العلاقة بين المنطقتين منذ أقدم العصور، ومدى قوة علاقة الشعوب العربية الإفريقية عبر التاريخ .

والواقع أن إشكالية العلاقات العربية الإفريقية تزايدت أهميتها أكثر سياسيا، وبشكل واضح منذ استقلال دول المنطقة، فى حين ظلت الكتابات التاريخية جامدة لمعرفة أغوار هذه العلاقات فى القديم. وهو ما فتح الباب لمزايدات عديدة وكتابات مفروضة من قبل مؤرخى المدارس الإستعمارية .

ومن هنا نرى أنه دين على الباحثين فى الجامعات العربية والإفريقية وفى مراكز الأبحاث والدراسات، البحث فى التراث الحضارى ومخلفاته بمختلف المناطق، خاصة المناطق الحدودية ذات التماس بين الأقاليم العربية والإفريقية، وإيجاد صلة الربط بين أقطار المنطقتين ، وبذلك يتم سد نقص كبير فى المكتبة التاريخية العربية الإفريقية.

ولقد ثبت بالبحث العلمى وجود صلات تاريخية بين المنطقتين منذ أقدم العصور، رغم ذلك ظل الإنتاج العلمى لتاريخ هذه العلاقات محدود للغاية،

وثبت أيضا بما لا يدع مجالا للشك مدى أهمية الدور التاريخي الذي قام به إنسان المنطقتين منذ عصور موغلة في القدم وحتى بداية العصر التاريخي .

والملاحظ أن هناك مادة هامة قلفت نظر المؤرخ في التاريخ القديم فيما يخص الإشكالية المطروحة، وتؤكد على مشاركة الشعوب وتعاونها في تطوير حياتها المادية والفكرية تطويرا ملموسا، مما جعلها تنتقل إلى المراحل الحضارية التالية، بحيث تؤكد دراسات عديدة أن هذه المنطقة كانت منطلقا وملقيا للعناصر السامية والحامية، التي أنتجت حضارة تأثرت بمقومات البيئة المحلية وبالمراكز الحضارية الأخرى المعاصرة لها آنذاك، ووضح هذا الإتصال أكثر بصفة خاصة بين جنوب شبه الجزيرة العربية وإفريقيا الشرقية .

وفي كل هذا الخضم، نحاول أن نتناول نقطة نرى أنها جديوة بالاهتمام، هي دور مصر في العلاقات اليمنية الحبشية . فمصر كانت لها ظلال وتأثيرات على كل المنطقة المطلة على ضفتي البحر الأحمر سواء أكان ذلك بتأثيرها الحضاري أو بدورها السياسي والعسكري، وسواء أثناء حكم الأسرات الفرعونية أو بعد مجيء قوى أجنبية تحكم في مصر.

وعلى هذا الأساس لا يمكن في اعتقادنا أن نلغي الدور المصري في هذه العلاقات وقد تناولنا هذا الموضوع في قسمين رئيسيين كالتالي :

القسم الأول : تطرقنا فيه إلى علاقة مصر بشرق إفريقيا وخصوصا الحبشة، وحاولنا أن نوضح فيه سعي المصريين تارة للسيطرة على المنطقة عسكريا، وأخرى بمحاولة استكشاف أغوار المنطقة بحملات

منظمة للوقوف على مدى أهمية موارد المنطقة واستغلالها، وتارة محاولة جعلها تابعة لمصر بأي شكل كان .

القسم الثاني : وتناولنا فيه علاقات مصر باليمن القديم، محاولين إبراز نظرة حكام مصر لقيمة اليمن الاقتصادية ومحاولتهم خلق علاقات معها. وفي مناسبات أخرى محاولة مصر السيطرة على اليمن وضرب تجارتها والتدخل في شؤونها الداخلية.

وتم استخلاص من خلال هذين القسمين أن دور مصر تميز بمحاولة حكمها فرض نوع من السيطرة والتبعية على منطقتي الحبشة واليمن. ومما لاشك فيه أن مصر بلد الحضارة والتاريخ قد كانت ولا زالت همزة وصل بين جنوب شبه الجزيرة العربية والشرق الإفريقي .

ولاستعنا ختاماً إلا أن نتقدم بتحياتنا الخالصة إلى الأستاذ الدكتور سيد أحمد على الباصري رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة القاهرة - وهذا نصائح وتوجيهاته القيمة .

قال الله تعالى :

" يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ، والله بما تعملون خبير " .

صدق الله العظيم

د . بلقاسم رحمانى .
أ . حرفوش مدنى .

القاهرة : ٨ يناير ١٩٩٧ .

علاقة مصر بشرق إفريقيا (الحبشة)

مَهَيِّدٌ

تعد دراسة الصلات العرقية واللغوية والحضارية القديمة بين سكان المنطقة - موضع الدراسة - أساسية لأيضاح مدى عمق الترابط العرقى والتواصل الحضارى. فمثلا سكان سواحل إفريقيا الشرقية وصلتهم بشمال القارة ووسطها، بل إنه إنطلاقا من البحر المتوسط شمالا نحو سيناء، وعلى طول البحر حتى الجنوب وجزر المحيط الهندى والأطلسى، كانت نقاط كثيرة للتلاقى والتماس، سمحت بالإستقرار والتفاعل الحضارى بين مختلف الجماعات البشرية المتواجدة بالقارة .

ويظهر أن مصر كشعب وحضارة كان لها الأثر الكبير فى توجه إفريقيا الحضارى، حيث تعد مصر منطقة حضارية هامة إضافة إلى كونها معبرا هاما للعنصر العربى نحو إفريقيا، فالعلاقات المصرية الإفريقية متداخلة من حيث العنصر البشرى والحضارى (هجرات ، تجارة ، ثقافة ، معتقدات) وحتى العمق الإستراتيجى الجغرافى الذى يحكم ويحدد العلاقات المصرية الإفريقية وحتى الإفريقية العربية ، وباعتبار مصر نقطة وصل وإتصال بين مختلف العناصر البشرية المتواجدة بالمنطقة، أو التى وفدت عليها فى مناسبات عديدة، فلقد إلهت هذه العناصر فى بؤقة الحضارة المصرية، وهنا يلاحظ أن بعض الدارسين حاولوا تحنيط الدور المصرى بإعتبارها بلدا معزولا جغرافيا وبالتالى

حضاريا، ولم يكن لديها أى بعد عالمي أو إفريقي، خاصة الباحثين الإستعماريين ومدارسهم والتي ركزت على تكريس فكرة أن حضارة مصر محلية، وأنها محاصرة بالصحراء والبحر^(١)، فهي شبه واحة، فلقد عاش حكامها يحاربون الغزاة والدخلاء من كل جهة، وبالتالي لم تكن لمصر جدلية عالمية خارجية، ومن هنا حذفوا دور مصر فى العلاقات العربية الإفريقية، وصلتها بالمنطقة.

ومن هنا يمكننا أن نتساءل إلى أى مدى وصل الدور المصرى فى خدمة التقارب الحضارى والبشرى المصرى الإفريقي العربى؟ للإجابة على هذا السؤال يستوجب تتبع هذه الصلات، التى يرى عدد من المؤرخين أنها تعود إلى غترات قديمة جدا، حيث مهدوا الأرض الإفريقية بحركات كشوفاتهم البحرية والبرية لسواحل شرق إفريقيا وحتى داخل القارة، ويؤكد عدد من المهتمين بالدراسات الأثرية والمقابل تاريخية، أن العلاقات المصرية بالشرق الإفريقي قديمة جدا، ومتداخلة ومتشابكة حضاريا، وهنا يرى بازيل دافيدسون^(٢) أن العلاقة تعود إلى عصور ما قبل تاريخية، حيث أن تحليلًا لحوالى ٨٠٠ جمجمة تقريبا لعصور ما قبل الأسرات فى مصر بواد النيل الأعلى من حوالى ٣٠٠٠ سنة ق م تبين أن ثلث السكان على الأقل كانوا من الزوج أو من سلالة الزوج الذين نعرفهم، وهذا يؤيد الدراسة اللغوية بعض الشيء وهو أن أسلاف إفريقي اليوم كانوا عنصرًا هامًا وربما كان سائدًا فى السكان الذين رعوا الحضارة المصرية القديمة، حيث يعد أقدم الزوج فى

(١) سير آلن جاردنر، "مصر الفراعنة"، ترجمة ميخائيل إبراهيم وعبد المنعم أبو بكر.

(٢) بازيل دافيدسون، "إفريقيا القديمة تكشف من جديد"، ترجمة بيل بدر، وسعد زغلول.

العصر الحجري في شمال السودان هم الذين وضعوا أساسا لكثير من حضارة النيل، فكانوا يصنعون الألية حتى قبل أن تصنع في جريكو (أريحا).

إفريقيا الشرقية أرضا وطبيعة

يذهب أغلب المؤرخون إلى أن اسم إثيوبيا (AITHIOPS . AITHIOPS) استعمل من قبل الإغريق والرومان، وقصدوا به المنطقة الواقعة جنوب شرق مصر. كذلك استعملوا في تقسيمهم الجغرافي كلمة (ليبيا) للمنطقة الواقعة غرب مصر، وهنا يلاحظ الدكتور عبدالله الشيبه^(١) أن هذا التقسيم استند إلى معايير سلالية أكثر منها جغرافية، حيث أن كلمة (إثيوبيا) تعنى في الإغريقية أصلاً (أصحاب الوجوه المحترقة) و (أصحاب العيون المحترقة اللامعة)، ولقد تأكد ذلك لدى الباحثين بما وجد عند هوميروس، حيث ذكر الكلمة مرتين في الإلياذة وثلاث مرات في الأوديسة كبلاذ بعيدة: (غير أن بوسيدون إنطلق إلى الإثيوبيون اللذين يقطنون بمنأى عن البشر...) كما جاء في الأوديسة^(٢). وفي العصر الروماني استعمل الاسم وأطلق على المنطقة الواقعة بين النيل والبحر الأحمر، بما فيها المناطق الغربية لوادي النيل والساحل الغربي من البحر الأحمر.

ويذهب عدد من الباحثين منهم د. عبدالله الشيبه إلى أن هناك خلط بين الهند وإثيوبيا، حيث كان من المعتاد أن يقول الناس الهند الغربية، أو الهند

^(١) عبدالله حسن الشيبه، "اليمن القديم وشرق إفريقيا".

^(٢) COUBLEAUX (J . B). " Histoire Politique et Religieuse d ' Abyssinie " (٢)

الشرقية، أو إثيوبيا الغربية وإثيوبيا الشرقية، ويورد نفس الباحث أنه في القرن الثاني يذكر أحد الملوك لأول مرة في نقش النصب التذكاري لمدوليس أنه أخضع (.. كل الشعوب المتاخمة لبلدى شرقا حتى بلد البخور، وغرباً حتى بلد الإثيوبيين ... والساسو.....) .

ويفهم من النصب أن الاسم لم يقصد به سكان الحبشة بما فيها مرتفعات (تجرى)، وإنما قصد به الشعوب التي كانت تقطن غرب وجنوب هذه المنطقة، وفي القرن الرابع الميلادي إستعمل الملك الأكسومي (عيزانا) لأول مرة ألقابه ملك الإثيوبيين في نقشه المكتوب باللغة الإغريقية .

ويذهب عدد من اللغويين ، إلى أنه من الصعوبة تحديد الزمن الذي بدأ فيه إستعمال هذه الكلمة في اللغة (الجزية) يقصد بها إثيوبيا الحالية . ورغم ذلك فإن عددا من الباحثين حاولوا تفسير ذلك ، منهم د . عبد الله الشيبه، حيث ذهب إلى أنه يمكن القول أن إعتناق الملك الأكسومي للديانة المسيحية في منتصف القرن الرابع الميلادي وإكتشاف الأحباش لكلمة إثيوبيا في الكتاب المقدس في ترجمته الإغريقية (SEPTUA . GINTA) * الذي ترجمت في مواضع منه عبارة (أرض كوش وأنهار كوش وملك كوش) بأرض إثيوبيا، وملك إثيوبيا، ومن هنا فإن هذه الترجمة التي إستند إليها الأحباش عمقت كثيرا إعتقادهم بأنهم المقصودون مما زاد من تحمسهم بها، رغم ذلك فإن كلمة (إثيوبيا) لا تصلح أن تكون إسما يطلق على تلك المناطق في مرحلة التاريخ القديم حيث أن مدلولها واسع وغير واضح بشكل دقيق، لكن

* - وهي الترجمة القديمة اليونانية للعهد القديم والتي تمت بين ٢٠ ق - ١٣٠ ق م لأجل يهود المائدة الإغريقية واستعملت من طرف الكنيسة المسيحية القديمة فيما بعد.

إسم الحبشة ويأجماع أغلب الباحثين، أنها إسم لإحدى القبائل التي هاجرت من جنوب جزيرة العرب فيما قبل الميلاد عبر البحر الأحمر إلى الحبشة، مؤسسة هناك بعد مملكة. ويوضح عبدالله الشيبه أن كلمة (ح ب ش ت) وردت مرة واحدة فقط في نقش أكسومي ب (٧/٢ : ١/٦ DAE)، وتقابلها في النص الإغريقي للنقش نفسه (٣-٢/٤ DAE) كلمة إثيوبيا .

ولقد أوضح عدد من اللغويين على أن إسم (الحبشة) يعنى الخليط من القوم، وتحبش القوم تجمعوا والحباشه مصدر والجماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة، وهم أيا كانوا لأنهم إذا تجمعوا إسودوا، وهم جنس من السودان، والحبشة بلد الحبشان^(١) أما الجغرافيون فإنهم يذكرون الإسم فقط دون أنبحث عن أصله، وعلى هذا الأساس يظهر وأن الحبشة تعنى بلاد الشعوب المختلطة .

ويذكر الدكتور عبد الله الشيبه وعدد من الباحثين، أنه اليوم باليمن يوجد عدد من المناطق تحمل جذر (الحبشة) وهى : جبل حبشى ويقع غرب مدينة تعز الحالية، ويبعد عنها بحوالى ٢٠ كلم، والمحابشة وتقع شمال غرب صنعاء وتبعد بحوالى ١٥٠ كلم، وحبش وهى ناحية فى محافظة (إب) . ومن هنا يظهر لنا جليا وأن لفظ الحبشة يستحسن إستعماله فى فترة التاريخ القديم، لتدل بشكل أدق على معناها الجغرافى والبشرى، وبالتالي فالمقصود بإثيوبيا فى المصادر الكلاسيكية هو بلاد النوبة وشمال السودان، وليس الحبشة التى إتخذت هذا الإسم القديم لها فى العصر الحديث، ولذلك يقع الكثير من

(١) زكرياء محمد بن محمود القزوينى، " أنوار البلاد وأخبار العباد " .

الباحثين لى هذا اللبس ومن هنا فموضوع البحث يكاد يشمل كل الشرق الإفريقى ، حيث تكون ممثلة له.

إن الدراس لبلاد الحبشة من الناحية الطبيعية والتاريخية، خلال فترة التاريخ القديم، يجد أن التاريخ الحبشى لهذه المرحلة جد متقد ولم يجذب إليه الكثير من الباحثين والمؤرخين، رغم أن هذه المنطقة كانت لها حضارة قديمة، وتنظيم حضارى متقدم نسبيا، مما جعلها جديرة بأن تكون ممثلة بين الشعوب التى ثقافتها تعد جزءا من ميراث العقل الإنسانى .

أما من الناحية الطبيعية فإن أرض الحبشة تتميز بهضبة ضخمة ضمن هضاب شرق إفريقيا، وهى من هذه الناحية منطقة طبيعية مميزة، بل يؤكد الجغرافيون أنه لا يوجد فى إفريقيا كلها إلا القليل من المناطق المرتفعة الواسعة، التى تتباين ظاهراتها البيئية والبشرية كما هى الحالة فى الحبشة إضافة إلى إرتباطها الطويل كم منطقة إتصال إفريقى طوال تاريخها القديم^(١).

لقد وصف الجغرافيون أن بلاد الحبشة مكونة من هضبة أشبه بحصن جبلى منيع، شامخ وعمر المسالك والدرب، أرسنها الطبيعة وسط سهول قاحلة مجدبة وصحارى محرقة، أما الهضبة نفسها فتتميز بالخصب الوفير الذى قلما وجد له شبيهه فى العالم إلا فى الغرب الأوسط فى الولايات المتحدة الأمريكية، أما الأراضى المنخفضة المحيطة بها فتشمل صحراء (الدناقل) أو صحراء (عفر) المحرقة ، التى تفصل بينها وبين البحر الأحمر من جهتها الشمالية الشرقية، وتمتد نحو سهول السودان المقفرة على طول حدودها

(١) د . تسمى محمد أبو عيانة، " جغرافية إفريقيا " .

الشمالية والغربية، وأما من جهة الجنوب فتحدها كينيا بمنطقتها القاحلة الخالية من السكان المستقرين، ماعدا البدو الرحل، ومن جهتها الجنوبية الشرقية تحدها سهول الصومال بما فيها صحراء أو غادين (OGADEN)^(١).

ويذهب بعض الدارسين إلى أن مدلول إسم البلاد الحالي، كان عند الأقدمين يعنى رقعة من الأرض أوسع بكثير من حدودها السياسية الحالية، إذ كان المقصود بها أرض السودان وبضمنها بلاد النوبة حتى القسم الجنوبي من بلاد مصر.

ويقول المسعودى فى كتابه مروج الذهب: (إن الحبشة كانت حدودها أسوان فى مصر)، ويقول أيضا: (وعلى أميال من أسوان جبال واحجار يجرى النيل فى وسطها، وهذه الجبال والمواقع فارقة بين سفن الحبشة فى النيل وبين سفن المسلمين). أما حدودها الشرقية فكانت تصل إلى البحر الأحمر، ثم يذكر خليجا يسمى ميناء (بربرة) على الساحل الجنوبى المقابل لخليج عدن ويقع ميناء بربرة ضمن الصومال.

كذلك فإن أهم ما يميزها خاصة فى منطقة الساحل هو أنه يغلب عليها طابع البرارى، فيها رقع خضراء من المراعى حيث يوجد الماء، ولكن إذا إتجهنا إلى الجنوب غلبت الصحراء فى منطقة الدناقل، التى يعتبرها سكانها أنفسهم جهنم حقيقية على الأرض، وهو نفس الوصف الذى أطلقه على المنطقة أغلب المؤرخين المستشرقين المهتمين بها، ولكن إذا توغلنا فى الداخل إختلف منظر البلاد إختلافا مفاجئا، فعلى السهول تطل سفوح وعرة

^(١) ممتاز العارف، "الأحياء بين مأرب واکسوم".

عالية بحيطان جبلية، تمتد من الشمال إلى الجنوب، وتنحدر إلى الغرب إحدارا تدريجيا، وهكذا تتكون هضبة ترتفع في بعض المواضع إلى أكثر من ١٤ ألف قدم وتشقها وديان الأنهار شقا عظيما وعميقا وسفوحها الوعرة قلاع طبيعية يصعب جدا بلوغها، وتختلف الهضبة عن القطاع الساحلى إختلافا تاما فى المناخ والنبات، ففي شهور الصيف تكون السهول جافة وحارة، ولكن يسقط المطر غزيرا على الجبال، فيشد سكان السهول رحالهم إلى الداخل. وجبال الحبشة مكان للجوء والإنزال، تستطيع جماعات جنسية ولغوية وسياسية الاعتزال فيه وإقامة صور من الحضارة فردية مستقلة كما يمكن إقامة قوة سياسية وإستقلال سياسى والمحافظة عليهما عبر القرون^(١).

أسباب إهتمام مصر القديمة بالشرق الإفريقى

قبل التطرق إلى دور الأسر الفرعونية فإنه يجدر بنا أن نتطرق إلى أسباب توجه المصريين نحو الجنوب، حيث يذهب عدد من المؤرخين إلى أنه منذ عصور بالغة فى القدم أن تملك الذهب يعد مرادفا للثراء، وقد بزت مصر فى تملكه كل جيرانها، وكان المعدن النفيس متوافرا فى الصحراء الشرقية فى الرمال الفيضية والحصى، وكعروق فى صخور الكوارتز على السواء، ولم يكن يحدث ذلك إلا حين بدأت الكميات فى المناجم تشح، أو أن العمل أصبح بالغ المشقة، ومن ثم إنتقل التعدين إلى النوبة السفلى وما وراءها، وهناك بردية تورين فى متحف تورينو تتناول بالوصف الطريق إلى واحد من أقاليم

(١) سيبينو موسكاني، " الحضارات السامية القديمة " .

الذهب، إضافة إلى أن السياسة المصرية نحو الجنوب والغرب الإفريقيين حاولت بمختلف أساليبها بسط نفوذها على المنطقة، حيث كانت مهمة حماية الحدود ضرورة ملحة لكل ملوك مصر بالتتابع حتى العهد الروماني، حيث كانت حامية عسكرية دائمة بالجنوب وفي كل الحالات كان السلم الحدودي مضطربا، ولهذا كثيرا ما لجأت مصر إلى فرض الجزية على الكوشيين، ولقد استمر حكام مصر في محاربة البدو وتوسيع نفوذهم، محاولين في نفس الوقت إجتناّب المغامرة في الصحراء لمحاربة البدو وقطاع الطرق، مكتفين بالتفاوض معهم، حيث وجدت إتفاقيات على السلم مع جيرانهم من القبائل البدوية القوية والرحل من البجة والبلميين (BALMMYES) والمزاي أو الموساي (MAZAY)^(١)، وهذا يعد سببا هاما في إتجاه السياسة المصرية نحو إدخال الجنوب ضمن إهتماماتها الإستراتيجية، وضمن نفوذها المباشر أو الغير مباشر، وهذا ربما يوضح أيضا أهمية موقع مصر بالنسبة لإفريقيا حيث يأتي كنتيجة لهذه العلاقات التاريخية التي تربطها مع المناطق المجاورة لها بالإضافة إلى ذلك فقد كانت فكرة من أين ينبع النيل تستولي على خيال المصريين، وبالتالي فإن أهمية تاريخ مصر هو إنعكاس لقيمة الموقع ووزنه الجيوسياسي في القارة الإفريقية قديما وحديثا .

(١) KAMMERER , " Essai sur l'Histoire Antique de l'Abyssinie " .

أهمية موقع مصر وحدودها القديمة

وباعتبار أن الموقع عاملا متفاوت القيمة وأهميته نسبية، فإن مصر من حيث علاقاتها السياسية والبشرية والتجارب مرت بمراحل، إنتقلت في الإطار القارى والمناطق المجاورة لينتهى بالأهمية العالمية، ويمكن القول أن أهمية موقع مصر التجارى خصوصا خلال العصر الفرعونى، كانت محدودة ولا تقارن بأهمية موضعها الذى كان منبع القوة، فمئذ بداية عصر البطالمة وموقع مصر يزداد أهمية حتى ظهرت أهميته العالمية، إذن من خلال هذا يعد الموقع عاملا أساسيا فى حياة مصر القديمة، خاصة فى علاقاتها مع إفريقيا، وثنا يمكننا أن نوضح أهم منافذ مصر البرية والبحرية نحو إفريقيا، باعتبارها عوامل مساعدة تابعة لأهمية الموقع الذى تحتله فى إفريقيا.

فى الحقيقة يؤكد عدد من المؤرخين القدماء على أنه لم تكن لمصر حدود ثابتة خارج وادى النيل خلال تاريخها الطويل ويحدثنا سترابون (STRABO) (٦٩ ق م - ٢٤ م) فى هذا الشأن فيقول : (أن القدماء قبله كانوا يطلقون إسم مصر على ذلك الشريط الضيق من الأرض الزراعية، التى كونها النيل وراواها بماله)^(١).

ويرى بلينى (PLINY) فى هذا الشأن أيضا أن مصر تقع بجوار إفريقيا، وهى تمتد فى الداخل نحو الجنوب حتى بلاد الكوشيين، ويكون فرعا النيل الحد الشرقى والحد الغربى لمصر السفلى، هذا الشريط يمتد من أسوان حتى البحر، لكن يظهر أنه منذ العصر الإغريقى أصبحت مصر تشمل إلى جانب الدلتا

(١) وعيب كامل ، " سترابون فى مصر " .

والوادي (شمال أسوان)، الصحراء الشرقية وشمال سيناء وجزءا كبيرا من الصحراء الغربية، فقد كان حد مصر الغربي يبدأ من قرب السلوم ويتجه نحو الجنوب والجنوب الشرقى، ويشمل واحة سيوة والبحرية والفرافرة والداخلية والخارجة بل إن مصر خلال الحكم البطلمي كانت تمتد حدودها الغربية لتشمل برقة، وتوسع حدودها الشمالية لتشمل قبرص^(١).

وخلال العصر الروماني والعربي إنتهت حدودها الغربية عند السلوم والواحات، وحدودها الشمالية عند ساحل البحر المتوسط أما حدودها الجنوبية فكانت تنتقل بين أسوان ووادي حلفا، وبينما يذكرسترايون أن الحد الجنوبي يمتد بالقرب من مدينة أسوان، نجد بطليموس الجغرافى (القرن ٢ م) يضع الحدود الجنوبية لمصر عند وادي حلفا، وهو ما يتفق إلى حد كبير مع الحدود الجنوبية الحالية.

وإذا إنتقلنا جهة الشرق، نجد الحدود الشرقية إتفقت مع ساحل الأحمر، وامتدت شمالا لتضم جزءا كبيرا من شبه جزيرة سيناء، ومن هنا تولدت عن هذا الموقع متابر ومنافذ هامة لمصر القديمة نحو إفريقيا، وهى من أهم العوامل المساهمة فى علاقات مصر بإفريقيا قديما.

(١) BALL (J) ", Egypt in the Classical Geographers

وتتمثل منافذ مصر نحو إفريقيا في الآتى :

١ . النيل (المداخل الجنوبية) : إن الحدود الجنوبية تجذبها ثلاثة طرق توصل من السودان إلى مصر .

أ - الطريق الجنوبية الشرقية : وتسلك وديان الصحراء الشرقية ، مثل وادى العلاقى وينتهى عند بلدة العلاقى ، ووادى خريط وينتهى عند كوم أمبو ، وقد ربطت هذه الطريق بين شمال السودان ووادى النيل ، وجاءت منها هجرات قديمة .

ب - الطريق الوسطى : وحى أرضها وتتمثل فى نهر النيل ، ورغم صعوبة الملاحة فى النهر الممتد جنوبى أسوان فقد وضلت الحضارة المصرية القديمة ، ويعدها البعض نفس الطريق للمسيحية وللإسلام ، وقد كانت جزيرة فيلة فى عهد الأسرات كما كانت أسوان (SYENE) فيها السوق التى يلتقى بها تجار الجنوب والشمال ، أو تجار النوبة وتجار مصر ، وكان على كل منها حاكم يلقب بحامى المدخل الجنوبى ، مهمته هى حماية الحدود الجنوبية من غارات القبائل المجاورة ، وتأمين طريق التجارة عبر الحدود على هذه الطريق ولقد وصل مصر عبرها حاصلات السودان ووسط إفريقيا الذهب والفضة ، وريش النعام والعاج والأخشاب الثمينة والبخور والصمغ .

ج - الطريق الثالثة : وهى درب الأربعين ويبدأ من درافور وكردفان وينتهى فى مصر السفلى مارا بالواحة الخارجة ، وهذه

الطريق قديمة إستخدمت فى العصور الفرعونى واشتهرت فى العصور المتأخرة بتجارة الرق والعاج وريش النعام .

٢ . القناة والبحر الأحمر : هنا يجب الإشارة إلى القناة التى ربطت البحر الأحمر بالنيل عن طريق وادى الطميلات وبحيرات التمساح والمرى التى كانت متصلة بخليج السويس خلال فترة طويلة من التاريخ، هذه كانت أيضا منفذا من منافذ مصر إلى البحر الأحمر ولقد حفرت هذه القناة عدة مرات، ولكنها سرعان ما كانت تترك لترودمها الرمال فقد حفرها لأول مرة الملك سيزوستريس الثانى (SESOSTRIS II) ، أحد ملوك الدولة الوسطى سنة ١٩٠٠ ق م. والرأى الراجع أن هذه القناة الأولى كانت تأخذ من أحد فروع النيل القديمة، ثم إتجهت نحو الشرق فى وادى طميلات حتى مدينة (PITHAM)، أو (HEROOPOLIS) التى كانت تقع على مسافة ٣٦ كلم إلى الغرب من مدينة الإسماعيلية، وحفرها فى المرة الثانية سبتى فى (١٢٥٠ ق م)، وفى المرة الثالثة نخاو (NECHO) فى (٦٠٩ ق م)، وفى المرة الرابعة أعاد حفرها داريوس الفارسى (٥٢٠ ق م)، والذى أراد أن يصل مصر ببلاد الهند، وفى المرة الخامسة بطليموس الثانى (٢٨٥ ق م)، وفى المرة السادسة حفرها تراجان سنة (٩٨ م)، وفى المرة السابعة والأخيرة حفرها عمرو بن العاص سنة ٦٤٠ م لينقل عليها الغلال إلى مكة لكنها ردمت بأمر الخليفة العباسى سنة ٧٦٢ م^(١).

(١) عبد الفتاح محمد وهبة، " الجغرافية التاريخية بين النظرية والتطبيق " .

دونظر لصعوبة إستعمال هذا الممر، فإن منتجات بلاد بونت كانت تنتقل
فى الغالب إلى أحد الموانئ الجنوبية على ساحل البحر مثل
(LEUCCOS - LIMEN) (القصور) أو ميسوس هرمسوس أو برنيسى
(BERENICE) أو عيذاب، ومنها تنتقل بالدواب إلى إحدى المدن على
ثنية (قنا)، قد تكون فقط (COPTOS) أو قنا أو قوص، ومن ثم تنقل
بالقوارب النهرية إلى الإسكندرية .

٣ - المداخل الغربية : مداخل مصر الغربية هناك مداخلان :

أ - الطريق الساحلية : وكانت أقل شأن من طريق شمال سيناء ،
وذلك بسبب قلة المياه الباطنية ، ومع ذلك سلكتها جيوش
البطالمة عندما همت بالإستيلاء على برقة.

ب - طريق الواحات : فكانت تبدأ من ليبيا وتمر بواحة جنوب
وسيو، ثم تتفرع إلى عدة فروع منها فرع يتجه شمالا ويصل
بالطريق الساحلية، وآخر يتجه شرقا عبر منخفض القارة ووادى
النطرون إلى الدلتا والفيوم وثالثة تتجه نحو الجنوب الشرقى إلى
الواحات البحرية فوادى النيل، ومن الواحات البحرية أيضا تتجه
نحو الجنوب إلى الواحات الجنوبية الداخلة والخارجة، هذه
الطريق على أية حال قليلة الأهمية.

إذن بهذه المداخل والمنافذ الأساسية إستطاع المصريون إرسال بعثاتهم
الإستكشافية والتجارية، وحمالاتهم العسكرية نحو إفريقيا.

النفوذ المصرى فى إفريقيا الشرقية فى عهد الفراعنة

لاشك وأن المصرى عرف طريقه إلى بعض البلدان المجاورة منذ أقدم العصور، وتبادل معها التجارب، فلم يكن هذا التبادل ليتم طوعا فى كل الأحيان، بل ربما كان الحصول على سلح الجيران يتم أحيانا عن طريق الإغارة عليهم أيضا، ومن المرجح أن مينا (الأسرة الأولى) قام بحروب ضد الليبيين والنوبيين، واحتفل ببعض الإحتفالات الدينية وخاصة تلك المتعلقة بمراسيم التتويج وينسب إليه بعض المعابد، ومن المحتمل أنه تزوج أميرة من الوجه البحرى (نيت حتب)^(١).

وبلاحظ أن الملك كان نشطا، فقد عثر على اسمه منقوشا على صخور جبل الشيخ سليمان بالقرب من وادى حلفا، ويبدو أنه إنتصر على أهل النوبة بقصد تأمين حدودهم أو رغبة فى الإستيلاء على بعض حاصلات الجنوب^(٢)، كذلك وصل النفوذ المصرى فى عهد (جيت) الذى وجدت آثاره وإسمه منقوشا على أحد الوديان التى تربط بين أدفو وساحل البحر الأحمر، مما يدل على مدى ما وصل إليه النشاط المصرى فى إرسال البعثات التجارية أو بعثات إستغلال المحاجر والمناجم من منطقة الصحراء الشرقية. كذلك فإنه أثناء حكم (زوسر) لم يقتصر نشاطه على الجانب الدعمارى، بل صد الغارات، ودعم علاقاته بأراضى إفريقيا، حيث أنه عندما حدثت مجاعة فى البلاد بسبب توقف

(١) محمد أبو المحاسن عصفور، " معالم تاريخ الشرق الأسمى القديم .

(٢) ARKELL (A J) - A History of the Sudan from the earliest Times to A .

D . ١٨٢١ .

الفيضان عن الوصول إلى منسوبه المعتاد، وبعد إستشارة حاكم الإقليم الجنوبي لمصر أمر الملك بأن توقف الأراضي الواقعة على جانبي النيل جنوبا من جزيرة سهيل إلى قرب الدكة في بلاد النوبة لإلته خنوم وبذلك عاد الفيضان^(١). وقد قام (حونى) آخر ملوك الأسرة الثالثة بتحسين جزيرة إلفنتين، إذ يبدو أن الحالة على الحدود الجنوبية لم تكن مطمئنة في عهده، وإمتاز سنفرو (الأسرة ٤) بالنشاط. إذ أنه قام بحملة إلى النوبة وليبيا جلب منها عددا كبيرا من الأسرى والماشية، كما قام بحملة أو بضع حملات على سيناء.

ويبدو أن التجارة في عهد (خوفو) قد نشطت بإتجاه الجنوب والشمال نحو فينيقيا، ويؤكد مؤرخون أنه ورد ذكر لرحلات تجارية هامة إلى بلاد بونت (الأرض المقدسة) في نصوص الدولة القديمة، وخاصة منذ عهد ساحوراع ٢٤٧٠ ق م (الأسرة ٥) وكذا عهد الملك سنفرو الأسرة الثالثة (٢٩٠٠ ق م) حيث كانت السفن المصرية في هذه اليهود القديمة تمخر عباب البحر الأحمر.

ويشير حجر بلرمو إلى أن الملك ساحوراع أرسل حملة إلى بلاد بونت، وأن هذه الحملة عادت ومعها مقادير كبيرة من البخور والذهب، ومن نقش صخرى قرب بلدة توماس ببلاد النوبة يمكن أن نستنتج أنه أرسل حملة إلى الجنوب، حيث أن هذا الملك إمتاز عهده بنشاط خارجى عظيم، خرجت فيه مصر عن عزلتها واحتكت بجيرانها. ومن الأدلة على ذلك ما نشاهده في مقبرة أحد الملوك أو أحد أشراف عهده في دشاشة من مناظر حربية، كذلك فإن الملك إسيى (زدكارع) يبدو أنه كان نشطا قويا أمن حدود بلاده، إذ أن

(١) BARAGUET. " La Stelle du Famine a Sahel".

نقوشا تحمل إسمه وجدت في توماس بالنوبة وفي وادي الحمامات، ولقد شهدت الأسرة السادسة حوالي (٢٣٤١ - ٢١٨١ ق م) رحلات متعددة براً وبحراً إلى بلاد بونت (punt)، ولعلها ساحل الصومال الذي يواجه الجزيرة العربية، وفي تلك الفترة كانت تقطع البحر الأحمر كله إلى الجنوب وتعود سالكة الطريق نفسه في وجه الريح، وهو عمل غير هين في مثل ذلك العصر وفي مثل ذلك البحر، وتسمى النصوص المصرية هذه السفن أحياناً بسفن الجبال^(١).

يفسر ذلك بعض المؤرخين على أن السفن كانت على نمط أخذ عن المدنية الفينيقية، أو أنها كانت من النوع الذي يستعمل في الملاحة إليها، وهذا ما يؤكد التعاون المذكور آنفاً بين الفينيقيين والمصريين في الملاحة البحرية وقد توج هذا التعاون بمشاريع هامة في الكشف في إفريقيا.

وتدل نصوص الرحالة (خرخوف) الذي عاش في الأسره ٦ على أن أحد رجال هذا الملك ويدعى (با أورد) استطاع أن يجلب له قرماً من بلاد بونت فكافأه من أجل إحضاره، وهذا مما يؤيد وجود نشاط مصري مكثف مع الأقطار الجنوبية، ويبدو أن عهد (يبسى الأول) شهد نشاط من بعض العناصر المجاورة لمصر، وخاصة في الشمال حيث شغلته عناصر من بدو سيناء وجنوب فلسطين، واستطاعت هذه العناصر تهديد الحدود المصرية، لكن قائده (أوني) جمع جيشاً كبيراً من الوجه القبلي ومن النوبة قضى به على المتاعب التي هددت مصر في الشمال، أما الملك (مرى نرع) الذي اعتلى الرش وهو صغير إذ كان في نحو ثماني سنوات عند وفاة والده، ومات بعد حكم ٤ سنوات وهي

(١) محمد أبو المحاسن عصفور، "علاقة مصر بالشرق الأدنى القديم".

فترة وجيزة، فأهم ما تعلمه عن عهده جاءنا عن طريق الوزير أونى، ومنها تبين أن هذا الملك أمره بحفر خمس قنوات في منطقة الشلال الأول لتسهيل مرور السفن، كذلك يشير أونى إلى أنه استغل أخشاب الأشجار في النوبة لعمل سفن كبيرة، استغلها في شحن أحجار الغرانيت اللازمة لبناء هرم الملك، وتوحي هذه النصوص بأن الملك أو بالأحرى ديوانه شعر بخطر حكام الأقاليم، فعين هذا الموظف النشط حاكماً على الوجه القبلى، ولم يكن لهذه الوظيفة مثل هذا الدور العملي في مراقبة حكام الأقاليم إلا في عهد هذا الملك، لأن لقب حاكم الجنوب أصبح بعد ذلك لقباً شرفياً ولم تكن له قيمة عملية، وبدل نصان من منطقة الشلال الأول على أن الملك ذهب إلى هناك بنفسه، حيث تقبل خضوع زعماء بعض القبائل النوبية.

ولابد أن الاهتمام بالاتجار مع النوبة قد ازدادت أهميته في عهد الأسرة السادسة، إذ لا شك في أن مصر كانت تحصل على منتجات النوبة في أول الأمر عن طريق الرحالة والمغامرين، ثم بدأت التجارة تنتظم وأخذ ملوك الأسرة السادسة يعهدون بها إلى بعثات تجارية يرأسها أحد كبار الموظفين، أو يكلف بها أمير الإقليم الجنوبي من مصر، وهؤلاء كان الواحد منهم يلقب عادة بلقب يدل على رئاسة فرق من المرتزقة، حيث يبدو أن عدداً من هؤلاء ومن الجنود النظاميين كانوا يرافقون تلك البعثات لحمايتها، ومن أشهر رؤساء البعثات في ذلك العهد (حرخوف) الذى يعد أعظم رحالة الدولة القديمة، حيث وصل فى أسفاره إلى منطقة بعيدة تدعى (يام)، وقد بدأ رحلاته فى عهد هذا الملك، وكان فيها يصاحب والده (أرى).

يحدثنا (حرخوف) الذى تولى حكم إلفانتين فى عهد (مرنسوع) وخلفه ، أنه قام بأربع رحلات إلى بلاد اليام (يام) التى سلف ذكرها، فلقد كان الغرض من الرحلة الأولى التى كانت تحت إشرافه هو وأبيه البحث عن طريق إلى هذه البلاد، ويفخر حرخوف بأنه أتم هذه الرحلة فى ٧ أشهر وأنه عاد منها بكنوز ثمينة، أما المرحلة الثانية، فقد أشرف عليها بمفرده على نحو ما حدث فى الرحلات التالية، ووصل عن طريق إلفانتين إلى اليام (يام) وقد جلب معه بعد غياب ٨ أشهر هدايا عظيمة كثيرة لم يسبق أن جلب مثلها من هذه البلاد، وقد رجع من منطقة سزو وإرزت وذلك بعد أن ارتدت هذه البلاد عن الملك، على أنه أكثر استقاضة فى الكلام فى رحلته الثالثة، فقد رحل هذه المرة عن طريق الواحات إلى يام، غير أنه وجد أمير هذه البلاد غائبا فى حملة حربية ضد الليبيين، ويتابع حرخوف حديثه قائلاً (لقد تبعته إلى بلاد الليبيين وهدأت غضبه) وبينما هو عائد لوطنه ومعه ٣٠٠ حمار محملة بالبخور والأبنوس والطيب والحبوب وجلود الفهود وأنياب الفيلة وعصى الرماية وسائر الذخائر الثمينة، إذ قابل بين إرزت وسرت زعيم إرزت وسرت وواوات وقد جمع قواته ليقطع على المصرى الجرىء طريق عودته إلى بلاده، لكنه عندما رأى قوة فرقة يام وكثرة عددها وهى التى استصحبها حرخوف لتكون درينة لجنده أهداه هذا الزعيم المأشية والماعز، وصاحبه بنفسه فى الطرق الجبلية فى أرزت وقد أرسل الملك إلى ذلك الموفق السائد إلى وطنه بسقينة تحمل الاطعمة المصرية الشهية (كنبيد البلخ والكشك والخبز والجعة) لاستقباله، ومع ذلك ظلت إلفانتين وقتاً طويلاً ملكاً للنوبيين اتخذوا المظهر المصرى فقط باعتبارهم خاضعين وموظفين لفرعون مصر.

أما في عهد يسي الثاني فقد توالى الرحلات التي كان يقوم بها أمراء الأقاليم الجنوبية إلى النوبة، ووصلوا إلى مناطق لم يسبق للمصريين أن وصلوها من قبل، ورغم هذا النجاح الكبير في الكشف إلا أن هيبة مصر قد تعرضت إلى الاستهانة بها في أواخر هذا الملك، لأن ما أصاب البلاد من ضعف كان النوبيون يشعرون به دون ريب. فبعض النصوص المتأخرة من عهده تشير إلى ذلك إذ يفهم منها أن النوبيين بدأوا يظهرن روح العداء نحو مصر ولذا أخذ قواد القوافل يستميلونهم بالهدايا، ولم يكن النوبيون وحدهم الذين يشعرون بما ينتاب مصر من ضعف بل إن العناصر الاكسومية المجاورة كانت هي الأخرى تشعر بالحالة الداخلية في مصر.

ورغم ضآلة معلومات المؤرخين عن الأسرة الثامنة. فإن المصادر القديمة تشير إشارات عابرة إلى إرسال البعثات لاستغلال المحاجر أو إلى شمال النوبة، ويلاحظ أن الملك (أنتف الأول)، من الأسرة ١١ كان يلقب قبل أن يعلن ملكا بحارس الحدود الجنوبية حيث يبدو أن الأقاليم الجنوبية من مصر كانت تكون اتحادا فيما بينها بزعامة طيبة.

يلاحظ أن الدولة الوسطى (٢٠٠٠ - ١٨٠٠ ق م) نشطت في إرسال البعثات حيث بعث الفراعنة حملات بحرية إلى (بنت)، ينعكس هذا النشاط في القصة المشهورة عن ذلك الملاح الذي نجا وحده من سفينة مصرية، تحطمت بالبحر الأحمر، وألقت به الأمواج على جزيرة تبعد عن طيبة مسافة تقطع في شهرين، وكان في الجزيرة ثعبان يزعم أنه أمير (بنت) (PUNT)،

وكان يهيمن على طائفة متنوعة من التوابل والحيوانات الأفريقية^(١)، وفي الأسرة (١٢) وصلت حملاتها وبعثاتها إلى ما بعد الشلال الرابع، حيث يلاحظ أن (إمنوحتب) الأول، قد أرسل بعض البعثات إلى النوبة وأخرى إلى وادي الحمامات لاستغلال المحاجر أو للقيام منه بالحملات نحو بونت، كذلك في عهد إمنوحتب الثاني الذي اتبع سياسة والده في التعمير والكشف، حيث نشطت حركة البناء في الدلتا والصعيد وتقدمت الفنون في عهده، وقد أرسل بعثة إلى وادي الحمامات برئاسة مدير البيت المالكي، وكان تعدادها ٣٠٠٠ شخص، فلما وصلوا إلى شاطئ البحر صنعوا السفن وذهبوا بها إلى بونت، ولقد أحضر الأحجار الممتازة في صناعة التماثيل اللازمة للمعابد. كذلك فإن امتنحات الأول (الأسرة ١٢) كان نشطا في استغلال المحاجر وإرسال البعثات لجلب الأحجار من وادي الحمامات كما أرسل بعض الحملات إلى النوبة واستطاع أن يخضع جزءها الشمالي لسلطانه، أما سياسته تجاه أمراء الأقاليم فكانت تختلف باختلاف الأحوال، حيث كان يخطب ود الكثير من الأمراء حتى لا يثيروا المتاعب للحكومة المركزية إذا ما غفلت بعض الوقت عن نشاطهم. وكان لسنوسرت الأول نشاط طوال مدة حكمه التي بلغت نحو ٤٥ عاماً، فقد أرسل عددا من البعثات إلى المحاجر والمناجم في الصحاري المصرية والنوبة، حيث جلبت الذهب من وادي علاقي بصحراء النوبة السفلى والشرقية والديوريت من محاجر صحراء النوبة الغربية على بعد نحو ٥٠ ميلاً إلى الشمال الغربي من توتشكي.

(١) جورج فضل حوراني، "العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل العصر
الوسطى"، ترجمة يعقوب بكر.

وهنا يقول الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور^(١) (أنه عثر في المحاجر على أسماء ملوك خوفو و د د فرع، ساحوراع أسيسى من عهد الدولة القديمة ...)، ولقد شيد سنوسرت الكثير من المباني في مختلف الجهات الجنوبية من النوبة، حيث أخضع جزءاً كبيراً منها للنفوذ المصرى حينئذ، لأن الدولة الوسطى اتبعت تجاه النوبة سياسة تختلف عن تلك التى اتبعتها الدولة القديمة فبينما كانت هذه الأخيرة تكتفى بإرسال بعثات تجارية للاتجار مع النوبيين، وتعمل على حماية بعثاتها بإرسال بعض القوات العسكرية معها نجد الدولة الوسطى بدأت سياسة احتلال فعلى، حتى تتمكن من استغلال مواردها وفق مشيئتها من جهة ولكى تؤمن حدودها الجنوبية تأميناً مؤكداً من جهة أخرى، وذلك لأن مجموعة من العناصر القوية الشكيمة الخليطة بالعناصر الزنجية أخذت تتوغل فى النوبة شمالاً، وأصبح يخشى من تقدمها نحو مصر نفسها، وبعد سنوسرت الأول بحق أول من اتبع سياسة حاسمة مع النوبة، لأنه مد الحدود المصرية إلى وادى حلفا على الأقل، وإليه ينسب تشييد ما لا يقل عن ثلاث قلاع فى هذه الجهات، ومع ذلك لم يستطع الاحتفاظ إلا بالجزء الشمالى من فتوحاته، وهى بلاد واوات. وواصل ولده امنمحات الثانى جهوده نحو الجنوب وتدعيم الصلات مع المنطقة إلى النوبة وبلاد بونت، لكن حفيده سنوسرت الثالث كان ذا شهرة كبيرة فى التاريخ، لأن نشاطه الكبيرة من جهة وطول مدة حكمه من جهة أخرى مكنه من أن يثبت حدود البلاد الجنوبية بالقرب من سمنة الحالية، وأن يفتخر بأنه (مد حدوده إلى أبعد من حدود آبائه وأنه زاد فيما ورثه)، وفى السنة الثامنة من حكمه أقام نصبا عند الحدود حتى لا يتعداها أى نوبى سواء عن طريق الماء أو الأرض، سواء عن طريق

(١) محمد أبو المحاسن عصفور، "معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم

السفن أو مع قطعان الماشية، أما النوبيون الذين كانوا يأتون كرسل أو الذين يقصدون سوق (أكن)، فهؤلاء وحدهم هم الذين كان يباح لهم المرور ولكن في غير سفنهم.

من هنا يبدو أنه قدر لملوك الأسرة ١٢ والعظام التوغل في بلاد النوبة وفتح جزئها الشمالي للحضارة المصرية، رغم بدأ نجم هذه الأسرة في الأفول، إلا أن بلاد الجنوب (النوبة) ظلت على علاقة بمصر، كما يتضح ذلك من وجود نقوش تسجيل ارتفاع الفيضان في عهد امنمحات الرابع.

وبينما أخذ الملك في تنظيم علاقات سليمة شمالاً فإذا بسيادته تتعرض إلى الغزو في الجنوب، فيعيد السيطرة على المنطقة بفتوحات وطد بها نفوذه، حيث يقول (لقد رأيهم جلالتي وليس كذبا أنني سببت نساءهم وأسرت رجالهم ... وقمعت ثيرانهم وأتلفت حبوبهم وأشعلت فيها النار (أقسم) وحياة أبنائي أنني أقول الحقيقة) ويزيد الملك على ذلك بإلحاحه على خلفائه بالاستمسك بما حققه من فتوحات وأمالك جديدة، وقد بنى حصناً وزوده بمعبد صغير ومما يدل على حسن سياسته أنه أهدى هذا المعبد قبل كل شيء إلى الإله النوبي القديم (ددون)، وتذكر نصوص الأهرام هذا الإله وتصفه (الشاب الصعيدي الذي يأتي من بلاد النوبة ويعطى الملك البخور الذي تبخر به الآلهة)^(١).

وظلت هذه الولاية الجديدة تابعة لمصر في الأجيال التالية مباشرة دون أن يجزؤ أحد على الاعتداء عليها واستطاع خلفاء ذلك الفاتح تسجيل ارتفاع

(١) POSENER, " Princes des pays d'Asie et de Nubie ".

النيل فى وقت الفيضان عند حدود بلادهم الجنوبية عند سمنة، ورغم أن الأسرة الثانية عشر قد ثار ضدها أمراء من النوبة، فإنه يحتمل أن نفوذ الأسرة الثالثة عشر قد امتد إلى بلاد النوبة، ويذهب البعض إلى أن الملك (نحسى) يمت بصلة إلى النوبة وربما كانت أمه نوبية.

لكن ينتاب مصر عهد من الاضطرابات مدة حكم الهكسوس، حيث فقدت مرة أخرى سيادتها على البلاد الجنوبية، وتدل ظواهر الأحوال على أن منطقة الشرق الأدنى القديم تعرضت لأحداث كثيرة متتالية، فى الوقت الذى أشرفت فيه الدولة الوسطى على نهايتها، فقد قضت بابل على الممالك المجاورة لها، كما أن المملكة الكاشية قد أخذت هى الأخرى تتطلع إلى غزو الأقطار المجاورة لها بينما أخذ الحوريون أو الميتانيون يستولون على البلاد السورية، ولا شك أن هذه التحركات ذات أثر فى هجرة وتسلل الكثير من العناصر الآسيوية إلى مصر، واستقرت جموعها فى المنطقة الأقرب إلى مواطنها الأصلية أى فى شرق الدلتا على الأرجح، ولم يمض وقت طويل إلا وأصبحت قوة يخشاها المصريون، واستفحل خطرهم وزاد إلى أن تمكنوا من فرض سلطانهم على مصر وجعلوا عاصمتهم أواريس، ومع أن عهدهم كان موضع أبحاث عديدة، إلا أن القموض مازال يكتنفه، ويبدو أن الثلاثة ملوك الأخيرين فى المجموعة الأولى وهم (أبوفيس) (خيآن) (شيشى) أو (إسيسى) قد حكموا مصر كلها والنوبة السفلى، لأن آثارهم وجدت موزعة فيها، إلا أنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بنفوذهم طويلا فى الجنوب، إن كان من المرجح أنهم ظلوا على صلة به كما يستدل على ذلك من لوحة عثر عليها بالكرونك سنة ١٩٥٤ تصف كفاح كاموزا ضد الهكسوس فى أواخر عهدهم، إذ تبين منها أن الملك الهكسوسى كان على صلة بأمير النوبة. والظاهر أن تجارة الهكسوس

كانت تجارة رابحة، وأن ملك الهكسوس هناك ونفوذه ظل قائماً في الصعيد، إلى أن بدأ الأمراء المحليون يعارضون هذا النفوذ وازدادت مقاومتهم له في الأسرة السابعة عشر، كذلك نسجل نزوح بعض المصريين نحو الجنوب وتبرمهم من نفوذ وحكم الهكسوس، حيث عملوا لدى أمراء الجنوب، الذين تخلصوا من النفوذ المصري، وأخذ يحكم جنوب النوبة أمراء مستقلون، وبينما أخذ المصريون الذين أجبرتهم الظروف على مجابهة بعض الأخطار في أقاليمهم يستعينون بالكثيرين من أبناء النوبة الذين قدموا إلى مصر جنوداً ومرتزقة ولقد استعان بهم المصريون في حرب الاستقلال لطرد الهكسوس.

ومن هنا فبعد عهد (كاموزا) و (سقن رع)، حيث بدأت مصر بمجيء (أحمس الأول) في تكوين امبراطورية مترامية الأطراف، أصبحت أقوى أمم الشرق الأدنى القديم، حيث شهدت منطقة الجنوب توسعاً مصرياً وأرسى هذا الملك دعائم الأمن خاصة مع القبائل التي عطلت عملية الكشف والرحلات والتجارة، وشيد إحدى القلاع، وبدأ وضع سياسة لإدارة هذه البلاد بتعيين حاكم عسكري عليها، وأسناد شؤونها المالية والإدارية إلى أمير (نخن)، ويظهر من النصوص التي خلفها أنه أخضع الجنوب والعصاة فيه. رغم ذلك يذهب البعض إلى أن النفوذ المصري في الجنوب (النوبة) أن المنطقة لم تصبح جزءاً أساسياً من المملكة المصرية، فقد ظلت دائماً تحت ولاة من قبل ملوك مصر كانوا يلقبون (الابن الملكي لبلاد النوبة والقيم على البلاد الجنوبية)، وأيضاً: (على بلاد الذهب).

كذلك فإن (امنحتب الأول) ورغم توليه العرش وهو صغير لكنه كان خبيراً بالملك ومقدماً كآسلافه فنصوص الضابطيين (أحمس بن أبابا وأحمس

بن تحب) تشير إلى أنهما ذهبا في حملة إلى النوبة، بل وتوغلا إلى سمنة (جنوب الشلال الثاني) على الأقل، حيث ترك (توري) الحاكم المصري على النوبة في عهده نصين في سمنة والثاني في أوناري (جزيرة الملك)، وهما مؤرخان بالسنة السابعة والثامنة من عهد امنحتب على التوالي، ويرجح أن قيام هذا الملك بهذه الحملة حدوث ثورة في النوبة ويذكر الكهنة أن نفوذ هذا الملك وصل إلى منطقة (كاروى) أى إلى قرب منطقة (نبتة) عند الشلال الرابع، لكن حسب عدد من المؤرخين لا توجد أدلة على ذلك، كذلك وسع نفوذه نحو مناطق الليبيين ... وبهذا إستتب الأمن والسلام بالمنطقة.

ويلاحظ أن تحتمس الأول (خليفة امنحتب الأول) والذي كان حاكماً على الجنوب يلقب بأمير كوش وكوش هي المنطقة المعروفة بأثيوبيا، اقام في النوبة، وقسم البلاد التي بين الشلال الأول والنيل الأزرق إلى مديريات أو أقاليم يدير شؤون كل منها حاكم من مصر تابع لأمير كوش، وأصبحت هذه المنطقة تسود فيها النظم الادارية والسياسية المصرية، وعندما صار ملكاً (١٥٥٢ ق م) أرسل جيشاً كبيراً وأسطولاً نهرياً هزم القبائل السودانية المتمردة، وأجبرها على العودة لدفع الجزية لمصر، وفي صخرة باحدى جزائر الشلال الثالث نقوش هيروغليفية تدل على أن (تحتمس الأول) اجتاز الصحارى والجبال ووصل إلى بلاد لم تطأها أقدام أسلافه وكان يهدف من مد هذا النفوذ إلى توسيع نطاق الاتصالات والتبادل التجارى، وبالتالي ضمان أمن الطريق التجارى إلى مصر سواء بطريق النيل أو الطريق البرى، ولهذا استولى على تلك المناطق التي إلى الجنوب من الشلال الثالث، وأمر بتطهير مجرى النيل عند الشلال الأول.

وجاء تحتس النثانى فى ظروف تميزت بخلاف على العرش. مما شجع أهل الجنوب على الثورة ضد النفوذ المصرى، لهذا أرسل إلى هناك حملة لنشر الأمن بها، وهنا يذهب بعض المؤرخين إلى أن جيوشه وصلت إلى جبل البرقل عند الشلال الرابع، غير أنه من التسير تأكيد ذلك، لكن على آثار جدران طيبة إسماء لمكان كوش والواوات كانت تحت حكم مصر، ودلت الآثار على أن بلاد الصومال والواوات كانت تدفع الجزية لتحتس الثالث^(١).

وبعد تولى حتشبسوت فى ظل ظروف تميزت بالصراع ضد تحتس وأنصاره، ومهما كان فإن عهدا بشهادة المؤرخين أنه عهد رخاء وطمأنينة، ولا جدال فى أنها كانت قديرة فى الحكم واستطاعت أن توجه نشاط الدولة إلى التجارة والأعمال الانشائية إذ أرسلت حملة إلى بلاد بونت ولعل ذلك كان عام ١٤٩٥ ق م، وتدل الرسوم البارزة والنقوش فى الدير البحرى كيف سیرت إليها خمس سفن كبيرة، وكيف استقبلت (بنت) المصريين ولهذا الغرض فقد قامت حتشبسوت بإنشاء طريق تمتد عبر القرع البلوزى أحد فروع النيل القديمة بالغرب من الزقازيق مختوقة وادى الطميلات، ثم البحيرات المارة إلى السويس^(٢).

ويلاحظ أن حتشبسوت لم تكن محبة للحرب، ولم تخرج على رأس الجيش، ولكنها وجهت عنايتها لاقامة المباني العظيمة (مسلتها الجرانيتية). وتوسيع نطاق التجارة الخارجية. كذلك كانت هذه الملكة فى حاجة إلى بعض أشياء كمالية لمعابدها ومقبرتها فأرسلت حملة إلى بونت سجلت

(١) عبدالله حسين، " السودان من التاريخ القديم إلى البعة المصرية " .

(٢) منذر البكر، " العرب والتجارة الدولية منذ أقدم العصور إلى نهاية العصر الرومانى

مناظرها على أحد جدران معبدها الفخم الذى ينتهى فى الناحية الغربية من النيل، حيث عثرت بعثة متحف المتروبوليتان فى نيويورك عندما كانت قائمة بحفائرها لتنظيف هذا المعبد على كثير من بقايا رسومها على طول الطريق الموصل إلى الهيكل. لقد كان أسطول الملكة حتشبسوت إلى بلاد بونت مكونا من خمس مراكب، ويرى فى هذا الرسم اثنين منها وقد رسا الاسطول على الشاطئ، وطويت القلوع وأخذ الملاحون بعد أن مدوا (السقالات)، يحملون البضائع لشحنها، وأخذ بعض هؤلاء الملاحين يعاكس قردا جلس على ظهر المركب، وتتحدث النقوش قائلة (تم تحميل المراكب بجميع الأشياء الجميلة فى بلاد بونت والأخشاب العطرية من أرض الإله، وأكوام من البخور الجاف وأشجار البخور وكذلك الأبنوس والعاج، والذهب من بلاد (إمو) الأخضر، وخشب القرفة وخشب الحسيت، ونوعين من أنواع البخور والكحل والقروود والنسانيس والكلاب وجلود الفهد الجنوبى، وكذلك بعض الأهالى، وأطفالهم، ولم يحدث أن جىء إلى ملك من ملوك يمثل هذه الأشياء منذ بدء الخليقة^(١). وهذا المنظر منقوش على أحد جدران معبد الدير البحرى فى طيبة، لكن تحتتمس الثالث شن حملة على آثارها حيث حطم عماله ١٠٠ تمثال لتلك الملكة وأيضاً اسمها والرجال الذين ساعدوها.

ورغم ذلك فإن تحتتمس الثالث قد ساد الهدوء فى عهده بالجنوب، حيث تشير حولياته بالكرونك إلى ورود جزيتها بانتظام ابتداءً من السنة ٢٥ إلى سنة ٣٩ من حكمه، ولهذا لم يكن هناك ما يدعو إلى توجيه حملات للجنوب. ويعد هذا الملك أول قائد عظيم وأنه أعظم ملوك مصر المحاربين، ولهذا يسميه

(١) برستيد، "إتصار الحضارة".

البعض بنابليون مصر، وحكم أكثر من خمسين عاما (١٥٠٠ - ١٤٤٧ ق م) ودونت أخبار حروبه على جدران معبد الكرنك حيث كون امبراطورية ثابتة الأركان، وبنى أول أسطول حربى مكنه من بسط نفوذه على البحار. وأيضاً فى عهد إمنتب الثاني فلقد استمر النفوذ المصرى بالمنطقة حيث شيد فى وادى (باع النجا) عند النيل الأزرق، واستمر الحكم المصرى بالمنطقة (الجنوب) بين القبائل فى عهد تحتمس الرابع (١٤٢٠ ق م)، حيث يغلب الظن أنه استطاع أن يمد نفوذه إلى أبعد من الحدود التى وصل إليها أسلافه، إذ عثر على آثار له فى جبهات كثيرة. أما (امنتب الثالث) وصل فى حملته جنوبا حتى العطيرة وأن ملكه وصل إلى الشلال الرابع، وأعلن أنه إله الجنوب وشيد معبدا له فى جهة (صلب) التى تبعد مائة وخمسين ميلا عن وادى حلفا جنوبا، وكانت زوجته الملكة (دى) تعبد كإله فى معبد (سد نجة) الذى بنى باسمها وهو يبعد أميالا قليلة من (صلب) شمالا، وفى دقة آثار يرجع تاريخها إلى عهد (امنتب الثالث). ويشير نص مؤرخ بالسنة الرابعة أو الثامنة من حكمه إلى أنه قام بحملة نحو الجنوب وأخضع أجزاء منها، لكن المؤرخون يقللون من أهمية هذه الحملة مقارنة بحملاته فى آسيا أو ضد اليمن. ولقد وجدت فى السودان آثار يرجع تاريخها إلى عهد إخناتون (١٣٧٥ ق م) وتدل الآثار على أن السودان كان يدفع الجزية إلى الملك (آى) (١٣٤٩ ق م ، والملك (حور محب) (١٣٥٠ ق م الذى زار السودان وله نوح أثرى فى جبل (السلسلة) عليه اسمه يظهر جالسا على عرشه محمولا فوق أعناق إثنا عشر سودانيا، وأن الصومال كانت ترسل الخيرات إليه.

وفى عهد الأسرة التاسعة عشرة كان الحكم المصرى فى عهد رمسيس الأول (١٣١٥ ق م) ميسوطا إلى الشمال الثانى فقط، لكن إنه سبتى الأول (١٣١٣ ق م) أعاد الحكم المصرى إلى الجنوب بصحارى الشرقى والغربى، وأنشأ القلاع وأصلح الطرق إلى مناجم الذهب فى شرق السودان. وحفر الآبار وأقام معبدا للآله (آمون رع) و (أوريس) و (حوريس) فقد وجدت خريطة لمناجم الذهب بوادى شوانب فى ورقة بردية محفوظة بمتحف تورينو بايطاليا، أما رمسيس الثانى فلقد حظى بشهرة لم يحظ بمثلها أى فرعون نظرا لحكمه الطويل (٦٨ عام)، مما جعله يقوم بمشاريع ضخمة، فلقد شيد معابد ومبانى ضخمة فى مناطق عديدة بالجنوب ومد طريق المواصلات وعندها بعد أن أدب العناصر المناوئة نحو مناجم الذهب فى الجنوب وحفر الآبار.

ويذكر الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور: (أنه عثر على لوحة رمسيس الثانى فى أسوان، تشير إلى أنه فى السنة الثانية من حكمه قضى على الإثيوبيين والحثيين وبابل وأجانب فى الشمال والتمحو والنوبيون ...).

ويلاحظ أن رمسيس الثانى كان مولعا بتخليد أعماله، فقد أتاح له حكمه الطويل (٦٨ عاما) بأن يقيم معابد عديدة، خاصة فى الجنوب، أهمها معبد أبو سمبل، ويبدو أنه كان مشتغلا كثيرا بأحداث آسيا، وكذلك ينهم بعض المؤرخين رمسيس الثانى أنه أدخل فى الجيش كثيرا من المرتزقة من الجنوب والليبيين، مما أضعف مصر وبالتالى قوتها، وأوصل عمله هذا عناصر أجنبية إلى القصر. أما (مرتجاج) فإنه قام بحملة نحو الجنوب ليثبت حاكم النوبة فى منصبه، لكن عهد رمسيس الثالث (١١٩٨ ق م)، زاد فى تشجيع

الاتصال والرحلات، خاصة التجارية نحو الجنوب، كما أنشأ سفناً ثيلية وبحرية كانت تمخر عباب البحر الأحمر إلى ميناء القصير، الذي ازدهر في ذلك العصر؛ كذلك استطاع هزم التحالف الليبي مع شعوب البحر ومطاردتهم، وبالتالي دخل الليبيون مسالمين إلى مصر جنوداً كمرتزقة. وبعد ذلك تولى الحكم ملوك ضعافاً مدة ٧٥ سنة، انتهى حكم الأسرة ٢٠ حيث ظلت الأمور تسير من سيء إلى أسوأ، وأصبح العوبة في يد كهنة آمون، الذين استأثروا بالسلطة وتقلص نفوذ مصر، وأصبح الجنوب مملكة مستقلة عن مصر.

وكان لسرعة تدهور أوضاع مصر أن أحد ملوك الجنوب (النوبة) (٢٥٠ - ٢٤٠ ق م) أرسل جيشاً وأسطولاً غزا به مصر بالوجهين القبلى والبحرى، فى حين يرى آخرون أنه جاء للقضاء على الثورة التى قامت ضد الملك رمسيس التاسع، بل إن أحد ملوكها (رمسيس الحادى عشر) فر من مقر المملكة فى الشمال نحو الجنوب عند كهنة آمون، من هنا أصبحت السلطات الروحية والزمنية فى جنوب مصر يهيمن عليها رؤساء كهنة آمون، حيث توارثوا قيادة وحكم النوبة، وهكذا ولى طهراقبة ابن (بيعنحنى) عرش مصر سنة ٦٨٨ ق م.

ويلاحظ أنه فى الوقت الذى كانت الأسرة ٢١ فى طريقها إلى الإنهيار، أخذت أسرة ليبية تتقوى وتشتد حيث استولى (شيشنق) على العرش، ويبدو أن كهنة آمون كانوا أقل قبولا لحكمه من أهل الدلتا، ومن المؤرخين من يرى أن طائفة من كهنة آمون لم تقبل الاعتراف بحكمه وفرت إلى بلاد النوبة، حيث احتلت بمنطقة ناباتا وجعلت منها عاصمة للمملكة التى أقاموها هناك ولهذا يرجع المؤرخون أصل الأسرة (النباتية) إلى هؤلاء الكهنة، ويستندون

فى ذلك إلى شدة ورع ملوك نباتا وإخلاصهم وتفانيهم فى عبادة آمون، وأن بعض هؤلاء الملوك يحملون أسماء مصرية. ولكن لا يمكن الأخذ بهذه الآراء، حيث لا يوجد ما يثبت أنهم تمكنوا من الوصول إلى الحكيم بتكوين أسرة مالكة فيها. أما الذين استدلووا بتشابه الأسماء لبعض الملوك بنباتا مع الأسماء المصرية فقد يرجع ذلك إلى أن بلاد الجنوب (النوبة) قد تأثرت بالحضارة المصرية منذ وقت طويل واصطبغت بها.

ويلاحظ أن شيشنق فى غزواته وحملاته نحو الجنوب والشمال قد دون كل ذلك على جدران معبد الكرنك ضمن أخبار الجزية التى وصلتته من النوبة، ويظهر أن الباعث على هذه الحملات هى البحث عن موارد الثروة نظراً لسوء حالة البلاد الاقتصادية.

وما إن تولى (أسركو الثالث) بن (شيشنق الرابع) حتى انقسمت البلاد إلى إمارات متصارعة، وفى نفس الوقت كانت هناك أسرة فى الجنوب استطاعت أن تبسط سلطانها على السودان الشمالى وبلاد النوبة ومصر العليا حتى طيبة، وأشهر ملوك الأسرة النباتوية فى النصوص المصرية (كاشتا)، الذى أخضع البلاد كلها لسلطانه، وهو حسب عدد من المؤرخين مؤسس الأسرة ٢٥، كما يطلق فريق من المؤرخين على هؤلاء النباتاويين إسم (الأسرة الإثيوبية)، ومن الجدير الإشارة إليها بالاسم المشتق من اسم عاصمتها ثبته أو نباتا (الأسرة النباتوية).

ويلاحظ أن (بعنخنى) كان حاكماً مطلقاً حيث فرض نفوذه جنوباً ونحو جنوب نباتا، وشمالاً حتى سوريا وفلسطين وهنا يلاحظ تعايش أسر حاكمة فى زمن واحد، ملوك نباتا الأسرة ٢٥ والأسرة ٢٢ بويسطة و (تفنخت) مؤسس

الأسرة ٢٤ التي سيطرت على معظم الدلتا. وهكذا ظل الصراع بين الآشورية والنباتية فكل منها أراد توسيع نفوذ ملكها وزيادة من أطماعها خاصة في عهد الملك (شبا) الذي مد نفوذه نحو الجنوب إلى الشلال الرابع، وكانت الواحات تخضع له أيضاً، ويظهر في أحد نقوشه وهو يخضع الشعوب الآسيوية والإفريقية.

وببدو أن النفوذ الآشوري وصل إلى حد الدلتا سواء في عهد (أسرحدون) أو (أشوربا نيبال)، مما جعل زعيم المقاومة طهراقة يفر نحو الجنوب ويلجأ إلى نباتا، وكذلك في عهد خليفته (تانيوت أمانى) حيث لم يستمر في مصر طويلاً لأن آشور بانيبال عاد إليها ثانية، وأخضعها من حديد ودمر طيبة للمرة الثانية، ففر تانيوت إلى نباتا، ويشير بعد ذلك المؤرخون أن مصر لم تطمع بعد ذلك في آسيا حتى أنها لم تتدخل حينما حاصرت بابل القدس، واكتفى بكا (نخاو) بترقية التجار وتشجيع الملاحة.

بعثة نخاو: أمر نخاو بعثة فنيقية بالدوران حول إفريقيا، وتعد ربما أول بعثة أو رحلة في التاريخ، حيث ذكر هيرودوت في كتابه الرابع الفصل ٤٢ رحلة الفنيقيين حول إفريقيا حوالي ٦٠٠ ق م، يعتبرها قصة من نسج الأساطير، حيث أن مثل هذه الرحلة التي يبلغ طولها ١٦٠٠٠ ميل أطول كثيراً من أية رحلة قطعها الإنسان قبل القرن ١٥ م، ولو كانت حدثت بالفعل لما ظل القدماء على جهلهم بشكل إفريقيا، وما قيل عن ظهور الشمس على الجانب الأيمن من السفينة على ساحل إفريقيا الجنوبي، كان من قبيل الظن ومن اليسير على المصريين الذين كان يستقى منهم هيرودوت معلوماته، وقد سمعوا بمكان شمس الصيف في

أصالى النيل جنوب مدار السرطان، فإنه من اليسير عليهم الإدلاء بمعلومات لهيرودوت، وبالتالي يشك بعض المؤرخين فى مصداقيتها^(١).

إذن تسب هذه الرحلة إلى عهد نخاو (NEKHO) ٦٠٩ - ٥٩٣ ق م الذى أراد التحقق من إمكانية الدوران حول إفريقيا، فبعث بسفن له جنوبا فى البحر يقودها ملاحون فنيقيون، فعادت أخيرا عبر البحر المتوسط، بعد رحلة للدوران حول إفريقيا، حيث بدأوا رحلتهم من مصر عن طريق البحر الأحمر ومنه أبحروا إلى المحيط الجنوبى وعندما كان يحل الخريف كانوا يلقون بمراسيهم عند الساحل أى مكان تصادف وجودهم فيه، ثم يزرعون بقعة من الأرض بالقمح، وينتظرون حتى يصبح القمح معدا للحصاد، حتى إذا حصدوا الزرع عاودوا الإبحار إلى أن إقتضى حولان كاملان، وفى السنة الثالثة داروا حول أعمدة هرقل وعبروها عائددين إلى مصر، وأعلنوا أنهم عندما كانوا يبحرون حول ليبيا كانت الشمس تطالعهم عن يمينهم، وبهذه الطريقة إستكشفت لأول مرة إفريقيا.

وأهم ما يمكن ملاحظته أن هذا الوصف جاء مقتضبا وخاليا من أى تفاصيل، حول الوصف الجغرافى والشرى للمناطق التى مر بها البحارة، وربما أخفى الفنيقيون التقرير الوصفى عن الفرعون، واحتفظوا به لأنفسهم لإستخدامه فى أغراضهم التجارية مستقبلا. وحيث أنه من المعروف أن الفنيقيين كانوا من عاداتهم الإحتفاظ بأسرار نتائج رحلاتهم البحرية لأنفسهم، لكن مهما يكن من مجهود الفنيقيين والذى أشاد به عدد من المؤرخين، منهم الأستاذ جورج فضلو حورانى، فإن الفضل يرجع إلى تخطيط فرعون مصر

(١) THOMSON (J.O.). " A History of Ancient Geography

وإمكانياته التي وضعها في خدمة البحارة الفنيقيين الذين إكتسبوا لهم لهذا الغرض^(١).

وكان هدف فرعون الأساسي من هذه الرحلة هو إكتشاف طريق تجارى جديد يمر بأغلب شواطئ إفريقيا الغربية، بعيدا عن الخطر الفارسى الذى يهدد الشرق الأدنى، إضافة إلى رغبة الفنيقيين فى تحقيق مصالحهم وإكمال معارفهم فيما يخص إفريقيا وشواطئها لهدف تجارى، وعلى هذا الأساس تخالفوا مع فرعون مصر الذى وفر لهم شروط النجاح أو إنباح الرحلة الكشفية وبالتالي يجدون طريقا بدلا لطريق شرق المتوسط الذى يتعرضون فيه لمضايقات سفن التجار الإغريق. ولقد أورد عدد من المؤرخين آراء تختلف فى بعض النقاط وتتفق فى الأخرى، ومنهم الأستاذ هورنل يرى فى بحثه (SEA TRADE IN EARLY TIMES) أنه ما كان من المستحيل على ملاحين فنيقيين مجربين أن يقوموا بهذه الرحلة متى وانتهت الرحلة وتيارات الماء ولم تخنهم قلوبهم، وأنه مما يدل على صحة القصة إن الشمس تشق من اليمين فى النصف الثانى من الرحلة وإن لم يصدق هيرودوت ذلك.

أما كارل بترز (CARL PETERS)، وس، جزال (S. GSEL) فلم يستبعدوا صحة الرواية، ويبقى الأكيد أن للفنيقيين من الدوافع التى شجعتهم على تنفيذ هذا المشروع المصرى هو ما سمعوه أيضا من التجار العرب عن الذهب الموجود بالقرب من زمبابوى. كذلك أمر نخاو بشق القناة التى تربط بين النيل والبحر الأحمر، ولكنه تخلى عن إتمامها لو فاة عدد كبير من العمال،

(١) سيد أحمد على الناصرى، "المصريون والعرب وعلاقتهم بإفريقيا فى العصور القديمة".

ولأن الكهنة تنبأوا بأن فائدتها لا تعود إلا على الأجانب، كذلك أرسل خليفته
بسماتيك الثانى حملة إلى الجنوب توغلت إلى الشلال الخامس والسادس.

علاقات مصر بشرق إفريقيا فى عهد حكم الأجانب:

أ : العهد الفارسي : لقد ظلت علاقة بسماتيك الثانى علاقة طيبة
باليونان، واستعان بهم فى تكوين أسطول ضخم حيث استخدمه
خليفته (أبريس) فى غزو فنيقيا مستغلا إنشغال نبوخذ نصر الملك
البابلى فى حروبه مع ميديا، إضافة إلى أن الحالة ساءت فى مصر
فى صفوف الجيش نظرا لمحabbاته لليونانيين. وهذا فى الوقت
الذى إستمر فيه الخطر البابلى، وظهور قوة جديدة هى مملكة
فارس التى تحركت إجيوشها وعبرت الفرات لتهاجم ليديا فى غربى
آسيا، ثم أخضعت كلا من سوريا وفنيقيا أيضا ولم يبق أمامها سوى
بابل ومصر، وما لبثت بابل أن هزمت وستطعت عاصمتها نينوى
على يد كورش ملك الفرس، وبذلك إزداد الخطر على مصر حيث
أصبحت أمام قوة الفرس الكبيرة .

واستطاع قمبيز من الإستيلاء على مصر، حيث وصل الفرس إلى منف،
وغزا قمبيز مصر العليا وأرسل حملة إلى النوبة ويعد مؤسس الأسرة ٢٧ فى
مصر، وبعده تولى دارا العرش فى فارس وقضى على الفوضى ووصل مصر سنة
٥١٧ ق م ، ولقد نجح فى حفر قناة وادى الطيلات التى تربط النيل بالبحر
الأحمر لكنه يبدو وأن إهتمامه كان مركزا على الإنتقام من اليونانيين الذين

هزموه في معركة ماراثون، كذلك حدثت ثورة في مصر بقيادة خباش في الوقت الذي بدأ يعد العدة للانتقام من مصر واليونان، لكن توفي وتبعه (إكزركيس) الذي قضى على ثورة خباش، وعين واليا والذي كان حكمه قاسيا، وبالرغم من محاولة أمراء مصر التحالف مع اليونانيين (الأثينيين، الإسرطيين) أو الليبيين ضد الفرس إلا أنهم لم يتمكنوا من صد الخطر الفارسي، خاصة وأن الوضع الداخلي مضطرب ومتدهور، ولكن من المؤكد أن حكم الفرس، كما تبين ذلك من بردية كتبت في عهد البطالمة تعرف باسم أخبار الأيام الديموطيقية، أن المصريين استأفوا كثيرا من الفرس وحكمهم^(١).

ورغم وضع الإمبراطوية الفارسية سواء في آسيا أو في فارس أو في مصر، فإنهم حاولوا التعرف من خلال موقع مصر الجغرافي على إمتداد مصر الجنوبية (الإفريقية)، والجنوبية الشرقية عبر البحر الأحمر، وهنا يلاحظ أن قمبيز عندما استولى على مصر ٥٢٥ ق م، فلقد غدت أرض إفريقيا الشرقية (السودان، إثيوبيا جنوب مصر) في خطر أمام الخطر الفارسي، حيث قام قمبيز بجيش جوار قاصدا تلك البلاد، إلا أنه لم يلبث أن دخل صحراء الحبشة مبعدا عن ضفاف النيل حتى أعوزته المؤن فهلك معظم جيشه.

أما داريوس الذي ولي شؤون مصر سنة ٥٢١ ق م فإنه إكتفى بأخذ جزية ضئيلة جدا من الإثيوبيين دون أن يتعرض لهم، فكانوا يرسلون إلى بلاد فارس كل ثلاثة سنوات ٤٨ أوقية من التبر ٢٠٠ قطعة من خشب الأنبوس ... ويذكر هيرودوت أن أحد قواد دار الأكبر (SCYLAX OF CARYNDA)،

(١) DRITON (V). "L' Egypte .

٥٢١ - ٤٨٥ ق م قام بحملة طاف أثناءها حول جزيرة العرب إلى مصر، وحفر أيضا بالقرب من الزقازيق وشق وادى الطميلات إلى السويس، ثم أنفذ أسطولا سار في هذه القناة فالبحر الأحمر قاصدا فارس، وربما سلكت هذه الطريق أيضا سفن قادمة من المتوسط، ففي خلال ثورة مصر صعد أسطول أثينا في النيل حتى منف .

وأهم ما يمكن ملاحظته هو تزايد النشاط الفنيقي في العصر الفارسي بالمنطقة ، فكلاهما معاد للإغريق وبالتالي حمى الفرس الفنيقيين ومن ثم شهد القرن الخامس نشاطا بونييقيا غير معهود في التجارة مع إفريقيا السوداء، حيث قام القرطاجيون برحلات بحرية كبيرة إلى سواحل إفريقيا الغربية، ويروى أن البحار الفنيقي حانون (HANO) كما جاء في الترجمة الإغريقية لنص فنيقي كان محفوظا في معبد (بعل حانون) في قرطاجة، فقد أبحر حول الساحل الفنيقي وربما إلى خليج غينيا، ويرى البعض أن رحلة (حانون) قد توقفت عند سيراليون الحالية، بينما يرى آخون أنها توقفت عند الجابون أو الكامرون، ولم يكتفوا بتوصيل منتجات إفريقيا إلى أوروبا بل أوصلوها إلى الحجاز، حيث يذكر موسكاتى أن مدينة (دادان) العلا كانت مركزا لنقل البضائع الإفريقية التي يجيء بها الفنيقيون، خاصة جلود الماشية والعاج والأبنوس وسروج الخيول .

ومن هنا يرى البعض أنه على الرغم من حكم الفرس (دارا) لمصر فإن العلاقة لم تنقطع مع الجنوب وإفريقيا الشرقية حيث أنه وقبل وفاة ناستاستن ملك النوبة، لم تكن لتخشى بأس مصر التي كانت يحكمها دارا الأكبر ملك الفرس، والذي صرف كل همه إلى إصلاح شؤون البلاد وازدياد ثروتها

تجارتها، حتى لقبه الفرس (بالتاجر)، فتمكن مصر بفضل هذا المجهود بأن تدفع ما فرضه عليها من الجزية، دون عناء. ويقول الدكتور بدج المؤرخ الإنجليزي الشهير (أنه لا ريب أن الذهب الذي كانت تدفعه مصر إلى دارا كانت تحصل عليه من وادي العلاقي، حيث كان تابعا إذا ذاك للنوبة ، كانت القوافل تغدو وتروح بين مصر والسودان في الذهب والعاج والأبنوس، وكثيرا ما كانت تحضر معها كثيرا من السودانين إلى بلاد مصر).

هذا ما يقوله الدكتور بدج عن علاقة مصر بالسودان (إفريقيا) في عصر يظهر وأنه لم تعرف فيه عن هذه العلاقة إلا النزر القليل، وكانت مصر تحت حكم أجنبي ولكن بالرغم من هذا لم يستطيع المؤرخ إنكار ما كان بين البلدين من متين الروابط واتصال. كذلك ما قاله هيرودوت (إن دارا فرض على بلاد النوبة جزية تدفع له ذهبا وعاجا وعبيدا) ، ومن هنا يظهر وأن العلاقة لم تنقطع بين مصر وبلدان الجنوب من زمن الفراعنة إلى البطالمة، وبالرغم من أنه لا يعرف شيء عن السودان في تلك الفترة إلا إشارات في بعض كتب القدامى من المؤرخين .

ومن هنا فإنه كانت ثروة الشرق وما تدره تجارتها من أموال طائلة لخزينة الدولة، أن دفعت بالإسكندر الأكبر على التوجه إلى الشرق الأدنى القديم، وكان غزو هذا القائد للشرق الأدنى له ما يبرره، ويمثل فاتحة عهد جديد عهد إستعماري لتلك المناطق.

ب - في عهد اليونان (الإسكندر المقدوني) : وهكذا وبعد معركة إسوس سنة ٣٣٣ ق م إنتصر فيها اليونانيون بقيادة الإسكندر الأكبر على داريوس، وفتح باب الشرق أمام الملك المقدوني،

وأمام الحضارة اليونانية التي إختلعت بعناصر حضارية شرقية،
فأنتجت ما يسمى بالحضارة الهلنستينية، ومن دراسة فتوح
الإسكندرية، نرى أن هدفه من التوسع هو ضرب إحتكار الفينيقيين
والعرب للتجارة الشرقية، والوصول إلى الهند وتأمين الحدود
الشرقية لإمبراطوريته، وعلى هذا الأساس إتجه نحو:

١. بناء المدن : حيث يرى المؤرخون أن الإسكندر بنى المدن لهدف
عسكري بحري تجارى، من ذلك الإسكندرية التي إعتبرها مخزنا لتجارة
الشرق، خاصة وأنه لمس أهمية المواد التي تمر عبر البحر الأحمر بين
الشرق الغرب وكذا المواد الأولية التي تستخرج من إفريقيا، والحقيقة أن
هذه المدن بمثابة ترانزيت (TRANSIT) ، وهو لم يكتف بذلك بل سيطر
على الطريق الرئيسية للتجارة .

٢. إرسال البعثات الإستكشافية: وذلك من أجل السيطرة على التجارة
ومالكيها ، فقد أرسل بعثة إلى السودان لمعرفة أسباب الفيضان على رأى
بعض العلماء، ولكن يعتقد أن هذه البعثة، أرسلت لتتري مدى صلاحية
الملاحة فى نهر النيل ، وذلك لما لمس الإسكندر من أهمية المواد الأولية
التي توجد فى إفريقيا.

ويظهرو أن تقارير الرحلات كانت غير مشجعة ، ورغم ذلك صدرت الأوامر
إلى (نيارخوس) (NEARCHUS) للطواف حول شبه جزيرة العرب، لكن
الإسكندر توفى قبل إكمال مشروعه فى بابل ٣٢٣ ق م .

ج - فى عهد البطالمة : ومن هنا ترك مشاريعه لورثته فى مصر وهم البطالمة الذين حاولوا إقتسام تركة الإسكندر الأكبر، مع باقى الورثة، حيث عمل البطالمة فى مصر على بناء دولة قوية عصرية تستطيع أن تثبت وجودها على الساحة الدولية والتركيز على إكمال مشاريعه الكشفية فى إفريقيا، حيث بدأ بطليموس الأول بإرسال بعثة إلى جزيرة الزمرد بالبحر الأحمر .

ويظهر بالفعل أن مطلع حكم البطالمة شهد حركة كشفية كبيرة، تمثلت فى البعثات الكشفية الجغرافية والعلمية المكثفة لسواحل البحر الأحمر الجنوبية، صاحبتيها فى ذلك حركة كشوفها برية بهدف معرفة الطرق المؤدية إلى أعماق إفريقيا، عن طريق تتبع نهر عطبرة، والنيل الأزرق إلى هضبة الحبشة، لقد كان حرص البطالمة على إقامة دولة قوية تتربع على عرش الممالك الهلنستية أن دفعهم ذلك إلى البحث على المواد الإستراتيجية، مثل الحديد والنحاس والمعادن الثمينة مثل الفضة والذهب، إلى جانب الأخشاب والعاج وحرصوا على أن يكون الميزان التجارى لصالحهم، فكانوا يصدرون إلى إفريقيا السوداء الحاصلات الزراعية والمصنوعات المصرية، ومن ثم لعبت إفريقيا دورا هاما فى السياسة الخارجية للبطالمة، فقد كانت إفريقيا منشأ ومصدر الفيلة التى لعبت دورا هاما فى تسليح الجيش المصرى وفى التكتيك الحربى لجيوش العصر الهلنستى، ويرجع هوس البطالمة على الحصول على الفيلة الإفريقية إلى الرد على إستعدادات منافسيهم السلوقيين فى الشام والعراق، الذين كانوا يجدون فى الهند معينا لا ينضب من الأفيال الجيدة، وإزاء هذا التحدى لم يجد البطالمة غير الإعتماد على الفيلة الإفريقية وترويضها، رغم أن كفاتها القتالية لا ترقى إلى مستوى الأفيال الآسيوية. ولقد

كان تتبع روافد النيل هو أيسر الطرق وأسهلها للوصول إلى إفريقيا وتدريب القبائل الإفريقية على طرق صيدها. ومكافأتهم مكافآت مجزية نظير ذلك العمل، ومن ثم عاد ذلك بالرخاء على القبائل الإفريقية، إلى جانب ذلك فإن البطالمة أمنوا طرق مواصلاتهم البرية مع النوبة، وبعثوا بعلماء الجغرافية وخبراء لبناء الموانئ واختيار عدة مواقع لإنشاء مراكز عسكرية، تتجمع فيها الفيلة قبل شحنها في ناقلات خاصة إلى مركز التدريب في منف^(١).

وكان بطليموس الثانى بالذات من أنشط ملوك هذه الأسرة، ونظرا للبراعة السياسية التي كان يتحلى بها أوائل ملوك البطالمة، والنشاط الذي كان يبذله التجار اليونانيين، ولذا فإن بطليموس الثانى إهتم بالأسطول ودفع به إلى البحر، وإهتم بالساحل الإفريقي الشرقى لجلب الفيلة، حيث أنه إضافة إلى بناء محطات على هذا الساحل لنقل الفيلة في مراكب في البحر الأحمر فقد أرسل ساتروس (SATYROS) لهذا الغرض، كما أرسل أوميدس (EUMEDES) للسبب نفسه، وقد أنشأ هذا محطات لتلك الغاية، ثم كلف أريستون (ARISTON) بالتحرف على شواطئ البحر الأحمر، وهناك من يقول أن بطليموس أنشأ مدينة أرسينوى (السويس الحالية) بناء على إقتراح أريستون (ARISTON)، ثم عاد حفر القناة القديمة التي تصل البحر الأحمر بالنيل، وبنى ميناء فيليوتير (PHILOTORA)، وأنشأ بعد ذلك ميناء برنيقة التي تتصل بقفط (COPTOS) على النيل بطريق برى طوله ٢٥٨ ميلا مزودا بالحاميات ومؤن الطعام، وبنى ميناء ميوس هورموس (٢٤٧ ق م) على بعد ١٨٠ ميلا شمال برنيقة .

(١) سيد أحمد على الناصري، " المصريون والعرب وعلاقاتهم بإفريقيا في العصور القديمة

وأنشد كانت مصر مركزا للتجارة الوافدة من تلك الأنحاء كلها ، وبلغت بهذه التجارة حدا لم يعهد من قبل حيث إعتبرها عدد كبير من المؤرخين أنها كانت مركزا للتجارة العابرة، فمن بلاد الصومال وشرقا من بلاد العرب وجزر الهند، كان يرد الذهب والأحجار الكريمة والألئىء والعاج والتوابل والأصباغ، وبعض الأخشاب النادرة..... وكانت هذه السلع تنقل برا من موانئ البحر الأحمر مجتازة الطرق الصحراوية إلى ققط فى وادى النيل ولهذا الغرض وكذلك من أجل النقل الداخلى، كان البطالمة فى الغالب أول من يسر إستيطان الجمال فى مصر على النحو الذى يسهل العمل والكشف نحو الجنوب فى بلاد إفريقيا^(١).

وأدى إهتمام البطالمة بالتجارة فأنشأوا موانئ عديدة على البحر الأحمر، منها أرسينوى وميوس هورموس وبيرنيكى (برليس) وأدوليس (عدول)، ويذهب صاحب كتاب الدليل الأرتورى إلى أن هناك أشياء عديدة متصلة بالموانئ التجارية الإفريقية، منها أن بطليموس أنشأ لهم مركز للحصول على الفيلة الإفريقية، وأن أدوليس تتجمع فيها غلات السودان وإثيوبيا فضلا عن المصنوعات (القماش الزجاج)^(٢).

ولقد بلغ إهتمام البطالمة بعد الإسكندر أنهم توغلوا جنوبا، لكنهم لم يتجاوزوا منطقة إلتقاء النيلين الأزرق والأبيض، مما زاد فى توثيق العلاقات بين مصر وإفريقيا الشرقية خاصة وأن بينهم مصالح متعددة ومشتركة وقد تجلّى هذا الإهتمام فى عهد بطليموس الثانى الذى إهتم بالشاطئ الإفريقى من

(١) سير هارولد، " المثلثية من الإسكندر إلى الفتح العربى "، ترجمة زكى على .

(٢) نقولا زيادة، " دليل البحر الأرتورى وتجارة الجزيرة العربية البحرية " .

البحر الأحمر، وجلب الفيلة وإنشاء مراكزها فى إيثيوبيا، وتأمين الطرق الصحراوية بالحاميات والمؤن المختلفة، وفتح القناة القديمة الممتدة إلى النيل، ويرجع البعض أن إهتمامه بالطرق التى تربط وادى النيل بالبحر الأحمر وإنشاء الموانئ على البحر الأحمر، إلى اجتذاب جانب هام من التجارة من هذا البحر إلى هذه الموانئ ولتنقل مباشرة إلى موانئ النيل ومنها إلى موانئ الإسكندرية، كذلك فإن بعض المؤرخين يرجعون نشاط البطالمة الكشفى التجارى نحو إفريقيا الشرقية خاصة فى عهد بطليموس الثانى أنه استطاع أن يحكم صلات المودة بينه وبين ملك النوبة (أوركمين) أو (أرجمينيس)، فازدادت التجارة بين القطرين زيادة كبيرة بفضل سياسة بطليموس السلمية التى آثرها على سياسة القتال والفتح فى ربط المنطقتين، وبها يستولى على ينابيع ثروة إفريقيا الشرقية (السودان). ويذهب عدد من المؤرخين إلى أن أكبر همه كان هو الحصول على مناجم الذهب بوادى العلاقى، ولم يكن ثمة من سبيل إلى ذلك إلا أن يبسط سلطانه على وادى النيل حتى (الدكة) جنوبا، ولم يكن الإقليم الواقع بين (عمارة) و (الدكة) خاضعا لملك ما فى ذلك العصر، ويبلغ طوله ١٣٠ ميلا وقد روى مؤرخو اليونان أن البطالمة بسطوا نفوذهم فى ذلك الإقليم على مدى نحو مائة ميل^(١).

ولم تقف مجهودات بطليموس عند هذا الحد، بل دفعه إهتمامه بأمر السودان إلى إرسال بعثة برية بالطريق الذى تبعه سلفه من الملوك، وهنا يرى بعض المؤرخين أن بعثاته لم تأت بفائدة كبيرة، مما جعله يولى إهتمامه

(١) BUDGE. " A History of Egypt From the End of the Noolithic to the Death of Cleopatre ".

بالموانئ البحرية القريبة من جنوبي السودان ليتخذ منها طريقا للتجارة مع تلك البلاد، وقد دلت اللوحة الأثرية التي إكتشفها الأستاذ (إدوارد نافيل) سنة ١٨٨٩ عند (باطوم - PITHOM) أو (تل المسخوطة) الواقعة على بعد ١٠ أميال جنوبي بحيرة التمساح، على أن بطليموس أرسل عمارة بحرية جنوب بلاد (خثثة) بالسودان عن طريق خليج السويس، وأن قائده حمل إليه كثيرا من نفائس تلك البلاد، ولما علم بطليموس بكثرة خيرات تلك الأرجاء وعظيم ثروتها شيد مدينة (EPITHERAS) (إبيثيرات) التي موقعها غير بعيد عن مدينة سواكن الحالية، واتخذها قاعدة اتصال وتجارة مع جنوب السودان وشرقه، وقد أخذ ضباطه كثيرا من فيلة تلك البلاد وأرسلوها بالسفن إلى مصر.

ويؤكد الدكتور (يدج) الرأي القائل أن الملك بطليموس في مصر كان مؤيدا ومعترفا به، وخضعت له من قبل بلاد السودان خضوعا تاما، ودانت له بلاد حملة الرماح والقسى وكذلك فإن هذا الملك كانت نظرتة في الكشوفات بعيدة، حيث أمر أحد قادته (أريستون ARISTON) الذي سبق ذكره بالإبحار من خليج السويس إلى باب المندب مستكشفا الساحل الغربي في طريقه، وربما كان الغرض من هذا ومن حملة الإستكشاف التي قام بها القائد المذكور، إعادة الطريق الذي يسلكه سليمان وحيرام، حيث أن فلسطين وفنيقيا كانتا خاضعتين للبطالمة.

كذلك فلقد ظهر في هذا العصر الجنوب في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الأول ق م، موظف بحمص لثعلب (EPITES ERYTHRAS KALINDIKES . THALASSES)، (المشرف على البحر

الأحمر والبحر الهندي)، وهو ما يؤكد نجاح سياسة بطليموس الثاني والتي سار على نهجها خلفاؤه، وخاصة بعد أن فقدوا إمبراطوريتهم في بحر إيجه في أوائل القرن الثاني ق م، وللإشارة فإنه كان على عهده في فلسطين عندما كان إقليم جوف سوريا تحت سيطرته موظف يحمل لقب (EPITES LIBANOTIKES)، (المشرف على إدارة البخور)، ويعرف عن هذا الملك علاقته الخاصة بالملك أسركو ملك الهند وكانت تأتيه من النوبة الجزية وأنياب الفيلة وأخشاب الأبنوس والذهب والفضة والحيوانات المتوحشة والطيور المختلفة... ولقد كتب بثوكرتيرس الذي زار مصر في عهد بطليموس الثاني وقد قربه الملك إليه، وكتب قصائده ١٤ و ١٥ و ١٧ في مدح الملك، حيث جاء في بعض القصائد العبارات التالية (بطليموس فيلاد نفوس ذو الثراء العريض والملك الواسع وسيد البحار وحاكم الحكيمين إن ملك الإله واسع وأن عبيده كثيرون، إنه ينزل عليهم من السماء حيث يروى الأرض فتنبت نباتا حسنا ... بطليموس ملك مصر وبلاد بعض سوريا وليبيا وبلاد الإثيوبيين حاكم كاريا وجزر الكوكلايس ولما لا يكون؟ إن أسطوله أعظم الأساطيل)^(١).

يستدل من هذه العبارة أن بطليموس الثاني بلغت مصر في عهده أوج عظمتها وإتساعها، وحقت قسطا كبيرا من الرخاء نتيجة السياسة الحكيمة التي إتبعها بطليموس إزاء العالم الخارجى وعلاقته به، وفي السنوات الأخيرة من حكم بطليموس الرابع فإنه أرسل بعثات كثيرة عن طريق موانئ البحر

(١) مصطفى كمال عبد العليم، " بطليموس الثاني والإحتفال بعيد البطوليمان " المجلة التاريخية المصرية .

الأحمر لقنص القبيلة التي كانوا يستعينون بها في الحروب، وقد أصلح بناء معبد الدكة بالنوبة الذي بناه أركمين ملك النوبة، وكان بطليموس الثامن (١٤٦ ق م - ١١٧ ق م) فيما يبدو حريصا على النهوض بتجارة البحر الأحمر، ففي نقش يرجع إلى ١٣٠ ق م ذكر لموظف مسؤول عن سير السفن وعن الطريق الصحراوي الممتد إلى قفت، ولقد وصل التجار اليونان في مصر في تجارتهم حتى ساحل الصومال، وآخرون في أدوليس مملكة أكسوم، وكذا إلى أوبوني (OPONE) وكانت أهم صادرات هذه المنطقة العاج والجلود والقرفة والرقيق. ويذكر بطليموس كلاوديوس الجغرافي على أن اليونان كانوا في عصر أنطونيوس أكثر علما بالمحيط الهندي أيام بيريبليوس وبليني، فقد أصبحوا يركبون البحر الأحمر على طول الساحل الإفريقي الشرقي حتى رهابتا .

وهنا نخلص إلى أن البطالمة في مصر عملوا على تنظيم شؤونها وأنشأوا دولة قوية، إذ كانت سيطرتهم التجارية البحرية قد تجسدت في ازدهار نشاطهم التجاري بشكل كبير، وامتداد منشآتهم التجارية إلى الشاطئ الإفريقي الجنوبي نحو الصومال والحشة وجزيرة سوقطرة، حيث حملوا من هذه المناطق العاج العبيد . كذلك حفرهم للترعة التي تصل النيل بالبحر الأحمر وإصلاحهم للطريق الرابط بين قفت (على النيل) وميناء برنسي على البحر الأحمر. إن العديد من الدارسين لهذه الفترة يؤكدون أن حكام البطالمة جميعا استطاعوا أن ينتهجوا أسلوبا سياسيا راقيا في المعاملات الخارجية، وتجسد ذلك في سياستهم التي إهتمت بالشرق الإفريقي سواء من الناحية التجارية أو الكشفية، ويعبر عن هذا الرأي الدكتور (بدج) قائلا (قد ساد السلام العلاقات بين مصر والسودان طوال عهد البطالمة وراجت التجارة،

وكانت القوافل لا ينقطع لها سير دون عقبة في سبيلها إلا ما كان من سطو بعض قطاع الطرق والضرائب الباهضة، التي كان يطلبها أحياناً حكام المدن التي كانت تعرض فيها تلك السلع للبيع .

مما سبق ذكره يظهر وان العلاقات المصرية الإفريقية في عهد البطالمة كانت متينة الروابط، وشملت تأثيراتها جوانب حضارية عديدة، وفتحت الطريق أمام تحقيق علاقات أحسن للحكومات التالية .

رغم ذلك فإن بعض المؤرخين يؤكدون أنه رغم ازدهار التجارة في العصور الأولى لدولة البطالمة، وتأمين التجارة إلى حد ما والقيام بالرحلات والاهتمام بإنشاء الموانئ، فإنه لم يكن لديهم نشاط واسع، حيث بقيت التجارة البرية والبحرية بأيدي العرب. وهذا ما يؤدي بالرومان بعد احتلالهم لمصر بمحاصرة المد التجاري العربي وتطويقها، بل وتهديد التجارة العربية في عقر دارها. وهكذا يتفق عدد من المؤرخين على أن نهاية عهد بطليموس الرابع (فيلوباتور PHILOPATOR) يعد بداية التدهور المنذر بوقوع كارثة، حيث كان متهتكاً وضعيفاً أهمل شؤون الجيش والاسطول، مما فتح الباب أمام أطماع أنطونيخوس (ANTIOCHUS) ملك سوريا، بالرغم من إنتصار المصريين في موقعة رفح (٢١٧ ق م) حيث كانت الأخطار محدقة بها داخليا وشغل البطالمة خلال القرنين الثاني والأول المشاحنات الداخلية والكوارث الاقتصادية وظهور روما كدولة قوية .

د - في العهد الروماني : لقد دخلت مصر رسمياً تحت النفوذ الإمبراطوري الروماني بعد هزيمة كليوباترة وأنطونيوس في ٣١ ق م، حيث أصبح أكتافيوس سيد الشرق والغرب بعد أن ضم

مصر إلى الشعب الروماني^(١). ومنذ أن وصل الرومان إلى السيطرة على مصر شرعوا في البحث عن الوسائل الكفيلة بهدف فرض هيبة الإمبراطورية السياسية والاقتصادية وتطبيق (السلام الروماني) بالسلم والحرب، وأخذت في إخضاع القوى القائمة في البحر الأحمر لسيادتها، حيث إستمرت السيادة الرومانية لا تنافس حتى مطلع القرن الثالث الميلادي عندما بدأت الإمبراطورية تضعف من الداخل، وهذا في الوقت الذي حدثت فيه تطورات سياسية بالمنطقة مثل ظهور دولة أكسوم في الحبشة كمنافس جديد، وظهور الدولة الساسانية في فارس والتي عملت على طرد الرومان من الشرق كله، ولما إنقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى شترين بيزنطة في الشرق وروما في الغرب حاولت بيزنطة إحياء النفوذ الروماني في البحر الأحمر على أساس إستخدام نفوذها كمركز للديانة المسيحية حيث إنأخذت من دولة أكسوم قاعدتها المسيحية.

ويؤكد الدكتور سيد أحمد الناصري أن الرومان بدأ إقترابهم تدريجيا بالبحر الأحمر منذ تدمير قرطاجة وكورثة عام ١٤٦ ق م ، وتحقيق سيادتها على البحر المتوسط كاملة، حيث بدأت تتعامل مع الممالك الهلنستية وتتطلع لنشر نفوذها في دويلات شرق المتوسط، خاصة مصر كهزمة وصل بين البحرين وكان للتغلغل الروماني التدريجي في مصر أثر كبير في تجارة البحر الأحمر التي كانت تمر عبرها، كذلك أدى حصول روما على غنائم الشرق إلى تغيير

(١) هـ . أ . - بل ، " مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي " ، ترجمة عبد اللطيف أحمد على .

كامل فى حياة الرومان، إذ بدأت البساطة القديمة تختفى وحل محلها تسابق على الشرق وكمالياته وترفه^(١).

ويذهب عدد من المؤرخين إلى أن الشعب الرومانى لم يكن شعبا مغامرا بالخيال وحب الإستكشاف بل كل كان شعبا واقعيا يتميز بالعبقريّة العسكرية، والقدرة الفائقة على خلق إدارة عملية منظمة، وقوانين متقدمة هى التى خلقت الإمبراطورية وحققت (السلام الرومانى) سواء فى إيطاليا أو فى الشرق.

وبفتح أغسطس لمصر وقيام (السلام الرومانى) ساد بين الرومان ميل شديد إلى الكسب المادى بلا حدود مستغلين النظام الجديد، وكان الدافع لتنشيط التجارة فى البحر الأحمر عقب إستيلاء روما على مصر دافعا ماديا بحتا، وبعكس الحال أيام البطالمة، حيث كان للرومانسية والخيال العلمى وحب المعرفة والإكتشاف دور كبير فى إرتياد مجاهل ذلك البحر. وهكذا بقيام الإمبراطورية وباستيلائها على مصر ورثت روما مشروعات الفراعنة والبطالمة فى البحر الأحمر، وأصبح للإمبراطورية سياسة محددة مع دول البحر الأحمر، حيث رأى أغسطس ضرورة تحويل طريق التجارة فى البحر الأحمر إلى الموانئ المصرية مثل بسيرنيكى (الهولسن) وميسوس هورموس (أبو شعر القبلى) وأرسينوى (السويس)^(٢).

(١) سيد أحمد على الناصرى ، " البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة " .

(٢) CHARLES WORTH (M . P) " Trade - Routes and Commerce of the Roman Empire " .

لقد كانت إستراتيجية أوكتافيوس أغسطس فى البحر الأحمر تقوم على تشديد القبضة على مصر ، لأنها همزة الوصل بين البحرين الأبيض والأحمر ، فضلا على أن مصر تمتلك مساحات شاسعة من سواحل البحر الأحمر ولذا عمل الإمبراطور أغسطس على تطهير هذه القناة بعد أن أهملت فى أواخر عصر البطالمة ، حتى يعطى فرصة للتجارة فى البحر الأحمر لتجد طريقها نحو الإسكندرية عبر النيل ، وهو نفس المعبر الذى قلت أهميته فى العصر الرومانى ، حيث إستخدمت طرق القوافل فى الصحراء الشرقية خاصة طريق ميسوس هورموس فقط ، التى إعتنى بها أغسطس باعتبارها مستودع لتجميع وتوزيع البضاعة الآتية من ميناء ميسوس هورموس ، وميناء بيرنيكى الذى إهتم به أغسطس لوجود عدد من مناجم الذهب ومحاجر الرخام بالقرب منها^(١) .

ولقد قام بترونيوس ثالث ولاية مصر بإجراءات هامة ضد التوبيين فى الجنوب ، حتى لا يزعموا الحكم الرومانى فى مصر وعدم التعرض لتجارة البحر الأحمر خاصة فى المنطقة الساحلية الموازية لبلاد النوبة ، ولقد أدى الكشف الأثرى إلى التعرف على مدى إهتمام الرومان بهذه الصحراء الغنية الشرقية ، وهى نفس الطرق التى بدأها الفراعنة وطورها البطالمة^(٢) .

ويلاحظ أن الرومان لم يقيموا أية موانئ جديدة على السواحل المصرية على البحر الأحمر ولأنهم وجدوا أن ما بناه البطالمة من موانئ يزيد عن الحد المطلوب ، فضلو التركيز على مينائى ميسوس هورموس وبيرنيكى منعاً للهروب من دفع الجمارك لهذا ركزوا جهودهم على تطوير وتحسين هذه

(١) سيد أحمد على الناصرى ، " الرومان والبحر الأحمر " .

(٢) MUNY (G . W) " Roman roads and Stations in the Eastern Desert of Egypt " .

الطرق وتأمينها تحت إدارة ورقابة حازمة، وتسيير حركة التجارة وتقديم كافة التسهيلات للقوافل التي تحمل عاج إفريقيا وتوابل ولبان بلاد العرب.

كذلك توجد بعض الموانئ الهامة التي لعبت دورا كبيرا في التجارة، مثل ميناء أدوليس (ميناء زولا قرب مصوع)، وهو الميناء الرئيسى لدولة أكسوم التي كانت في طور النشوء، حيث كان هذا الميناء مركزا لتجارة الجلود والعبيد والأفيال وهي بالقرب من العظيرة.

وباتجاهنا جنوبا بحذاء الساحل الصومالى نجد عدة موانئ لعبت دورها في حركة النشاط التجارى في البحر الأحمر في عصر الرومان، مثل ميناء أوبونى (OPONE) في بلاد الصومال، والذي كان يصدر القواقع الحمراء وأجود أنواع الرقيق والقرفة والحنظل واللبان خاصة ميناء موندوس (MUNDUS). وتحت مظلة (السلام الرومانى). وصل التجار جنوبا حتى سواحل أوغندا، حيث كان ميناء رابتا (RHAPTA) الشهير وهو آخر ميناء عرفة دليل الملاحة، وكانت هذه المنطقة من الساحل الإفريقى تقع تحت النفوذ السبئى الحميرى. ولقد أبدى (نيرون) اهتماما زائدا بالتجارة مع الشرق، والعناية بالطرق التي كانت في خدمة هذه التجارة، وكان هذا الاهتمام مثار الإعثناء بالبحث العلمى والجغرافى عن الشرق. والذي لم يتوقف منذ إسترابون وصدور دليل الملاحة في البحر الأحمر بل استمر ولقى التشجيع من قبل الأباطرة.

ومن أجل البحث عن طرق جديدة للتجارة مع الشرق أرسل نيرون بعثة إستكشافية إلى النوبة عام ٦١ م عادت بخريطة مفصلة وتقارير شاملة عام ٦٤ م، وقد قابلت السلطات النوبية هذه البعثة بالترحاب ويسرت لها مهمتها حتى

بلغت النيل الأبيض، إذ كانت هناك علاقات صداقة بين أباطرة الرومان وملوك بلاد النوبة التي ذكر التقرير أنها في حالة انهيار شديد، ولقد ذكرت آراء عديدة حول أهداف هذه البعثة إلى النوبة، فمنهم من يرى أنه أرسل هذه البعثة تلبية لرغبة الجغرافيين سينيكا وبليني لجمع المعلومات الجغرافية والنباتية والحيوانية، ومنهم من يراها تمهيدا لحملة رومانية للاستيلاء على بلاد النوبة، لكن من المرجح أنها استهدفت تحذير أكسوم التي كانت تهدف إلى الاستيلاء على سواحل النوبة المطلة على البحر الأحمر، مما يهدد المصالح التجارية الرومانية خاصة أن ميناء عدول كان مركزا لتجارة العاج، وكذلك دعما معنويا لملوك النوبة الأصدقاء. ويذكر الدكتور سيد أحمد على الناصري أنه وردت إشارات إلى أطماع أكسوم في الحبشة لأول مرة في دليل الملاح، عندما ذكر مؤسسها المجهول أقام عام ٦٠ م نصبا تذكاريًا عند ميناء لذكرى انتصاراته، وروى فيه أنه استطاع بسط سلطانه شمالا من الحبشة حتى حدود مصر الجنوبية، وجنوبا حتى ساحل الصومال، بل ادعى أنه عبر البحر الأحمر واحتل الساحل الجنوبي الغربي لبلاد السبئين ووصله إلى ميناء ليوكي كومي، ويظهر أن الملك مبالغ في حجم انتصاراته، ورغم ذلك أثارت قلق الرومان الذين توجسوا خيفة أن يكون هدف ذلك الملك البعيد هو غزو بلاد سبأ والتحكم في تجارة البحر الأحمر، مما دعا الرومان إلى اتخاذ خطوات إيجابية، إذ كانت بعثة نيرون إلى النوبة تصرفا لاهتمام الرومان المتزايد في البحر الأحمر وحماية السلام الروماني من خطر الدويلات المحلية الواقعة على الشاطئين، ووقف أي تغيير في ميزان القوى العسكرية بالمنطقة، وقد يكون كذلك أن نيرون يهدف من البعثة هو البحث عن مناجم الذهب، لأنه

ان أكثر الأباطرة قلقا على استمرار النزيف للذهب الرومانى نحو الشرق، وهذا التفسير يتفق والغرض من حملة بقيادة تراجان فيما بعد على داكيا.

لقد كان تراجانوس من أكثر الأباطرة إهتماما بالتجارة مع الشرق، إذ قام بإعادة حفر القناة التى تصل بين النيل والبحر الأحمر بالقرب من كلوسون عند خليج السويس عرفت باسم قناة تراجانوس، وكان اتساعها يقدر بـ ١٥٠ قدما، وقادرة على استقبال أكبر السفن التجارية فى ذلك الوقت، كما كانت القناة ترتبط بمنف عن طريق قناة صغيرة، وبذلك ربطت مصر داخليا وخارجيا بالبحر الأحمر^(١).

لقد كانت مصر أغنى ولايات الامبراطورية الرومانية وأهمها استراتيجيا وتجاريا، وكانت ولاية افريقيا تمتد الامبراطورية بحسبى خمس ملايين مكىال رومانى من القمح، وهو ما يعادل ثلث الكمية التى يستهلكها الشعب الرومانى سنويا، حيث كتب المؤرخ تاكيثوس بأسلوب ساخر عن انتهاء عصر اعتماد إيطاليا على ما تنتجه من القمح، وبداية الاعتماد على القمح المصرى، وقال بالحرف الواحد (إن إيطاليا لم يصبح الجذب، لكننا نفضل استغلال افريقيا ومصر، لقد أصبحت حياة الشعب الرومانى رهنا بالسفن)^(٢).

لقد جاء النشاط التجارى الرومانى الواسع استجابة لحاجة عالمية، وما من شك أن الامبراطورية الرومانية التى وحدت العالم القديم ويسرت الانتقال من إقليم إلى إقليم، كانت أحد أسباب ازدهار التجارة العالمية، وكان من الطبيعى أن تحتل مصر الصدارة فى هذه التجارة لموقعها المتوسط الممتاز بين الشرق

(١) PHILIP (K.H.), " History of the Arabs

(٢) مصطفى العبادى، " مصر الاسكندر إلى الفتح العربى ".

والغرب، ولامتلكها سواحل طويلة على طول البحر الأحمر والمتوسط، ولذلك أصبحت الاسكندرية أول ميناء مصرى، حيث يقول استرابون أنه (أكبر مركز تجارى فى العالم بأسره)، ويرجع ذلك إلى أن مصر كانت معدة للقيام بهذا الدور أحسن اعداد بفضل موانئها البحرية خاصة الاسكندرية، ومنذ أن ألحقت مصر بالامبراطورية زادت أهميتها التجارية أكثر كوسيط بين الشرق والغرب، حيث زاد اتصالتها بالشرق والجنوب الأفريقى فى القرنين الأوليين من عمر الامبراطورية نظرا لاكتشاف الرياح الموسمية فى المحيط بواسطة هيبالوس حوالى القرن الأول ق م، حيث أصبح الاتصال سهلا وسريعا بين الاسكندرية وسواحل البحر الأحمر، اضافة إلى سياسة أغسطس نحو حرية الاقتصاد، إذ خلقت آثارا هامة فى انتعاش الاقتصاد وشجع الرومان على الاستثمار الحر فى التجارة، وهذا ما أدى إلى انتعاش حركة الاتصال بين الشرق والغرب، خاصة بين مصر وسواحل افريقيا الشرقية، حيث يؤكد استرابون ان الاتصال زاد مع الهند وخاصة مع الصومال زيادة كبيرة، إذ أصبحت أساطيل كبيرة تصل إلى أقصى إثيوبيا وتعود محملة بأغلى البضائع إلى مصر، مؤكدا على ان تجار الاسكندرية ساهموا بقسط وافر فى هذه الاتصالات فكانت لهم أكثر من ١٢٠ سفينة تجوب ساحل البحر الأحمر والمحيط الهندى، لا سيما وأن التجار السكندريين لم يلقوا منافسة حقيقية تهددهم، فعرب الجزيرة العربية اتجهوا نحو تجارة القوافل، وبقي تجار تدمر (PALMYRA) الذين شاركوا فى تجارة البحر الأحمر وشكلوا خطرا على الرومان.

وإذ كان الأباطرة الرومان قد اعتنوا بالتجارة وطرقها البحرية وفرضوا أنفسهم بالمنطقة، وتحكموا فى سير السفن التجارية ووضعوا نظاما فى الموانئ ... ، فإن ذلك لا يعنى أنهم وجدوا نفس السهولة فى اتجاههم نحو

جنوب مصر وداخل أفريقيا، حيث أن بعض المؤرخين يروا أنه ليس مؤكداً أن أكتافيوس قد اتجه إلى ممفيس ووضع عند بابليون (مصر القديمة) فرقة رومانية أخرى - وآها إسترابون - ولكن اسمها لا يزال مجهولاً، ولم ينس الفاتح الجديد أن جنوب الوادي - النيل - مركز عبادة آمون كان متعللاً للحركات القومية ضد البطالمة قبله فبعث إليه بفرقة رومانية ثالثة، يرجح أنها فرقة قورينة الثالثة (LEGIO III CYREMAICA) حيث تشير أقدم الوثائق إلى وجود جانب منها في منطقة طيبة، وعززها بثلاثة كتائب مساعدة رابطت على الحدود الإثيوبية - النوبة - عند سويني (SYENE) أسوان، ومن المرجح إستناداً إلى وثائق الفترة التالية أنها رابطت عند مداخل إقليم هام كارسينوي (الفيوم) وهرموبوليس (الأششونيين) التي كانت محطة جمركية للسلع الواردة من مصر العليا وكبتوس (قفط) وهي نقطة تجمع وتوزيع هامة للبضائع الآتية من موانئ البحر الأحمر (ميوس هرموس، برنيقي) ولمنتجات المناجم والمجاجر بجمال الصحراء الغربية بين النيل والبحر الأحمر، وقد بلغ إهتمام أكتافيوس بالمنطقة الأخيرة أن وضعها تحت إمرة ضابط يحمل لقب قائد برنيقي (PRAEFECTUS BERENICE)، أو قائد جبل برنيقي (PRAEFECTUS MONTIS BERENICIDIS) الذي كان يتولى إلى جانب إدارة المنطقة والإشراف على المناجم والمجاجر بمساعدة مشرف (PROCURATOR)، قيادات الحاميات التي وضعت لحراسة هذه المناجم، وتأمين الطرق الصحراوية بين النيل والبحر الأحمر، لقد حاول الرومان تأمين تجارة الحدود وطرقها محاولين تطبيق سياسة السلم الأغسطي (PAXAUGUSTA)، ورغم تضاؤل دور مصر السياسي بإعتبارها ولاية رومانية فإنه كان لها مركز خاص بين الولايات الرومانية، ومن هنا جاء تأمين الحدود

كضرورة حرص عليها الأباطرة، ويظهر أنه لم يمض وقت طويل على الوجود الرومانى بمصر حتى ثار جنوبها عنها، خاصة طيبة حيث يقول إسترابون :

(وقع - أى كورنيللوس جالوس - فى زمن ثورة قامت فى طيبة بسبب الضرائب)^(١). وطيبة هى إحدى الأقسام الكبرى التى إنقسمت إليها مصر إبان الغزو الرومانى، وتقابل العليا، وسبب هذه الثورة تعسف الجباة أو محاولتهم فرض ضرائب جديدة ولقد وصل هذا الوالى (حسب إسترابون) إلى الشلال الأول ، وأنه إستقبل عند جزيرة فيلة (قصر أنس الوجود) سفراء ملك الإثيوبين ، ولعل هذا الملك (تيريتيكاس) هو زوج كنداكى (KANDAKE) المملكة الشهيرة التى حكمت النوبة بعده، وأن هذا الملك قبل الحماية الرومانية وتم تعيينه حاكما على (ترياكتنا سفينوس)^{*}.

من هنا يتبين لنا أن سياسة (أكتافيوس) الرومانية مبنية على عدم توسيع رقعتها بمصر، بل الإكتفاء بخلق مناطق محرمة تعترف فقط بالسيادة الرومانية الإسمية، تجنباً للنزاع مع الدول القريبة منها. ولقد رأى أغسطس ضرورة تحويل طريق التجارة فى البحر الأحمر إلى الموانئ المصرية الواقعة على هذا البحر، مثل برنيقى وميوس هوموس، وكانت بلاد العرب السعيدة وقبائل الصومال (TROGLODYTES) تحتكر التجارة فى هذه المنطقة وحتى أواسط إفريقيا.

(١) عبد اللطيف أحمد، " مصر الإمبراطورية الرومانية " .

* - الكلمة يونانية معناها ٣٠ إسخونيوس (SCHOINOS) ، وهذا الأخير يساوى ٦٠ إستادايون

(STADION) وهو يساوى ١٨٥ م أى أن الكلمة تودى معنى المسافة المذكورة بظنها ٣٣٣

كلم مربع .

والملاحظة أن مصر الرومانية حاولت الاحتفاظ بالإتصالات التجارية في
المجرى الأسفل للنيل بين مختلف الأقوام في إفريقيا الإستوائية ، ومراقبة
المناجم في الصحراء الشرقية، يحتمل أن يكون ذلك المجهود قد لقي
صعوبات جمة في سبيل بسط السيادة الرومانية على إفريقيا الشرقية خاصة
مناطقها الداخلية، حيث يشير أغلب المهتمين بتاريخ المنطقة أنه لم يكن من
السهل الاحتفاظ بسيادتها في هذه المناطق، وقد يتضح لنا ذلك جليا من
الحملة العسكرية ، والتي جردها ولاية روما في مصر وابطرتها على المنطقة
الجنوبية، حيث قامت القوات الإثيوبية بعدة حملات ومناوشات على الحدود،
إضطرت كورنيليوس جالوس أول ولاية أغسطس على مصر إلى أن يوجه جهوده
العسكرية إلى هذه المنطقة بشكل جدي، وينتهي بوضع المنطقة الواقعة
جنوبى الشلال الأول تحت إمرة حاكم يدين بمنصبه وبولائه لروما .

ومما يدل على كثرة الإضطرابات التي تثيرها المنطقة هو عودة كل مرة
الإثيوبيين إلى شن الغارات على الحدود، مما يضطر كل مرة الحكام بأن
يجهزوا حملة لرد العصاة وحماية الحدود وهى إجراءات لم تكف لردع
الإثيوبيين ، وكان لابد أن تتلوها إجراءات أكثر صرامة، قبل أن تستقر الحدود
بصفة نهائية، حيث يظهر أن كرنوليوس عندما وصل إلى أسوان فإنه جمع
رؤساء النوبة الذين كانوا يقيمون جنوبى وادى حلفا، فأفهمهم ما (لروما) من
الحقوق فى تلك المنطقة من وادى النيل، وترك لهم أن يحتفظوا باستقلالهم،
ومن المحتمل أنهم ما كانوا ليحجموا عن مقاتلة الرومان لو لم يسح لهم
كورنوليوس الاحتفاظ بما كان لهم من الحقوق والإمتيازات، وقد عثر الكبتن
(ليونس LYONS) عند (فيلة) على لوحة مكتوبة بالهيروغليفى والإغريقى
والرومانى تنطق بإخماد ثورة فى سنة ٢٩ ق م . ومن هذا نستنتج أن أول

إتفاق عقد بين الرومان وأهالى الجنوب (النوبة) كان فى تلك السنة أو التالية، لكن عندما علم أهل النوبة بإنتقال حاكم مصر شرقا إلى بلاد العرب السعيدة إنتهزوا الفرصة وغزوا (طيبة)، وهجموا على الحامية التى هى قريبة من (أسوان)، وإستولوا عليها وإنتزعوا تماثيل قيصر فتولى حاكم مصر الذى قد عين حديثا، وهو (بترونيوس)، تولى أمر مواجهة النوبيين الذين إضطروا إلى الإنسحاب إلى مدينة (بسليس أى الدكة) الحالية وعندما كانت العاقبة وخيمة على النوبيين الذين لم تعضهم دورعهم ورماحهم وقسيهم وسيوفهم عن قلة ضباطهم وسلاحهم، فولوا الأدبار نحو الصحراء وعبروا النهر إلى جزيرة صغيرة فى النيل، فقبض عليهم وأرسلهم إلى الإسكندرية وقتل معظم النوبيين ، وإواصل (بيترونيوس) تقدمه جنوبا من مدينة الدكة حتى أريم، وتابع السير حتى (نبتة) عاصمة الجزيرة المروية القديمة ، وإستولى فى طريقه على المدن المهمة، ولم تكن المملكة (كانداس) فى (نبتة)^(١). لما وصل بترونيوس إلا أنها أرسلت رسلها فى طلب الصلح، وإطلاق سراح من لديها من الأسرى ، وإعادة التماثيل ، فكان جواب (بترونيوس) أن هاجم (نبتة) وإستولى عليها ودمرها، وأخذ كثيرا من الأسرى والغنائم، ثم قفل راجعا من شدة الحر، حيث أقام فى (أريم) فرقة من أربعمائة مقاتل، وأرسل آلاف النوبيين إلى قيصر، وبعد رحيل (بترونيوس) عن (أريم) هاجمها المملكة (كانداس) بجيش قوامه عدة آلاف، لكن (بترونيوس) عاد إليها وأجبر المملكة - كانداس - على إرسال رسلها للصلح، فأرسلهم بدوره إلى (قيصر) حيث حصلوا منه على ما طلبوه، ورفعوا الجزية عنهم، ولقد جاء فيما رواه (بلين) عن تلك البلاد أنها كانت بلاد ذات بأس وشهرة أيام حكم ملكها (ممنون)، ولكنها لم تكن فى

(١) محروب ثابت، " تاريخ السودان القديم " . جريدة الأهرام ، عدد ٢٨ نوفمبر ، سنة ١٩٢١ .

الواقع إلا ولاية مصرية، وكانت جديرة بهذا الوصف إذ كثيرا ما تولى زمامها حكام مصريون .

وفى حكم كلاوديوس (٤١ - ٥٤ م) قام الرومان بمشروعات كثيرة كتوطيد لرويج التجارة، وغزو نيرون لإثيوبيا بهدف السيطرة على حاصلات البلاد، وتجب بعض المؤرخين أن الرومان حتى ذلك الوقت لم يعلموا إلا القليل من جغرافية بلاد السودان (إثيوبيا) ولا لأدركوا أن أئمن ثروة البلاد كائنة فى دارفور وكردفان والإقاليم حول النيل الأبيض والأزرق بينهما، رغم أن (نيرون) أرسل قبل أن يقوم (بغزو النوبة) بعض ضباطه مع الجنود ليوتادوا البلاد، ويرفعوا إليه تقريرا عن أحوالها، إلا أنهم عادوا بأن ليس على ضفاف النيل إلا أرض يلقح، على أن ما عادوا به من معلومات عن البلاد الجنوبية (السودان ...) لا تخلوا من أهمية، فقد مروا ببلاد عديدة حتى مدينة (مروى) وتابعوا السير حتى وصلوا إلى منطقة قالوا عنها أنهم رأوا الصخور فيها تعترض النهر حيث يندفع بقوة هائلة، وبأخذ عما رووه : أنهم وصلوا إلى إقليم تغمره مستنقعات عظيمة قد نبتت فيها أعشاب كثيفة، جعلت الملاحة مستحيلة فى تلك المنطقة)، ولوقارنا بين ما وصفوا به منطقة المستنقعات التى وصلوا إليها، وبين ما وصف به (السيروليم جارستن) مستنقعات بحر الجبل، لما خامرنا شك فى أنهم وصلوا إلى جزء من وادى النيل يخترقه هذا البحر (بحر الجبل)، ويتأسف الدكتور الأثرى الإنجليزي (بدج) لأن كثيرا من التفاصيل التى ذكرتها البعثة الرومانية الكشفية لم يصل إلينا، ولكن لا جدال فى أن ما ذكره من أوصاف منطقة المستنقعات لم تبين إلى على مشاهدتهم الشخصية.

لكن رغم قدرة الرومان في السيطرة على الوضع بالنوبة إلى حد ما ، فإن القبائل المعروفة برجال أو قبائل التلال كما كان يسميهم قدماء المصريين بدأوا في أوائل القرن الثالث بمهاجمة مصر الجنوبية، ونزلوا بأرض الواحة الخارجية وكان الإغريق والرومان يسمونهم البلميين (BELIMMYES)، ويذكر المؤرخون أن هؤلاء القوم من أصل حامى نزلوا بالصحراء الشرقية متنقلين فيها شمالا وجنوبا مرتادين الكلا والمراعى لإبلهم وماشيتهن، وتعرف تلك القبائل عند الكتاب العرب (بالبجة أو البجاة) ، ومنهم قبائل البشاريين وقد إنظم إليهم عدد كبير من زنوج منطقة (مروى) ، ونزل كثير منهم بالصحراء الغربية وانتشروا حتى كردفان ، وقد حالت تلك القبائل طيبة للوقوف في وجه بمصر، وقد إشتهر أهل تلك القبائل بشدة بأسهم وغلظة طباعهم وبطشهم بالقوافل وسلبهم متاعها، وفي حوالى سنة ٢٥٠ م إشتد ساعدتهم بصعيد مصر، واعتدوا على مدائنهم وقراه نهبا وسلبا ، إلى أن ثار ضدهم (ماركوس يليوس) (MARCUS JULIUS) سنة ٢٦١ م وردهم إلى الشلال الأول، لكنهم عادوا إلى الإعتداء على مدائنهم فى عهد كلاديوس الثانى (CLAUDIUS II). وتؤكد الوثائق ومؤلفات القدماء من اليونان والرومان أخبار الصراع المرير بين الرومان فى مصر والبلميين (البجة) ، حيث إتخذوا مدينة كلابشة بالنوبة السفلى عاصمة لهم ، ومازال سلطانهم يعظم خاصة وأنهم تلقوا مساعدة من قبائل إبن ملكة النوبة وأهل مصر الناقمين على الحكم الرومانى، حتى رسخت أقدامهم وثبتت سلطانهم بمصر العليا فى حكم (أورليان OURELIAN , ٢٧٠ - ٢٧٥ م) الذى شن عليهم حملة شديدة وأرسل عددا من أسراهم إلى روما لكنه لم يقبض على سلطانهم، وبمقدم (ريبوس) فإنه عجز عن إخراجهم من مصر العليا، لاسيما وأنهم إتحدوا مع

قبائل الشرق والغرب، ولم يتمكن من السيطرة إلا على مدينة (قفط) مركز تجار الشرق في تلك الفترة.

وفي أوائل حكم دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥ م) * ازداد نشاط البجة . حيث كانت مصر تعاني من هجمات هذه القبائل في الجنوب، رغم التعزيزات الأمنية التي قام بها في أسوان. أو في المدن القريبة منها، ولم يكن في ذلك الوقت قادرا على إرسال جيش نحو الجنوب (السودان ، النوبة ...) لمقاتلة تلك القبائل، فاستقر رأيه على سحب الحاميات الرومانية، وأن يعهد بحماية مصر العليا ورد عادية (البجة) إلى قبيلة (نباك)، وهي ذات بأس شديد، يرجع أصلها غالبا إلى دارفور وكردوفان ، وامتد نفوذها حتى الواحة الخارجية، وكانت بيدها تجارة الجنوب كلها، ويرى أحد المؤرخين أنه كان لأهلها من البأس والخشونة وصوله القتال ما جعلهم خير أنداد لأهل البجة ، وهم سلالة قبائل (منيتو) أو البقارة الذين القوا الرعب في قلوب الفراعنة، وكانت خطة ديقليديانوس أن إقتطعهم أرضا واسعة ، ورتب لهم مالا كثيرا سنويا في مقابل حراستهم لبلاد مصر، ورد عادية البجة عن مدنها وأهلها، في نفس الوقت عقد معهم (البجة) إتفاقا بأن يدفع لهم مبلغا سنويا نظير كفهم عن الإعتداء على مدن مصر العليا ولما تم ذلك شيد حصنا على جزيرة قريبة من (الفيلة) ، وأقام فيه معبدا يجتمع مواليقها على يد قساوسة من الفريقين . والملاحظ أن البجة وامثالها كانوا يعبدون في فيلة الآلهة إيزيس وأوزيريس ، وبرباوس ... ويرجح أن سياسة ديقليديانوس كانت حكيمة في تلك الظروف، حيث أدرك بدهائه

أن أفضل سبيل للإطمئنان على أرض الجنوب من مصر، هو بإيثار صدور قبائل الغرب على قبائل الشرق، ومبالغ مالية مناسبة يدفعها سنويا لتلك القبائل .

وقد ساد السلم في مصر و وفيت تلك القبائل بعهودها قرابة مائة سنة، لكن البجة في أواخر عهد ثيود وسيوس الثاني (٤٠٨ - ٤٥٠ م) غزوا مصر العليا واستولوا على الواحة الخارجة وهزموا جنود الرومان بها، وفي حكم الإمبراطور ماركسيانوس (٤٥٠ - ٤٥٧ م) جمع ماكسيمانوس قائد الرومان العام بمصر جيشا جرارا وسار به جنوبا حتى حل بأرض البجة ولبتة وأرغمهم على رد ما كان لديهم من أشرار، وفرض عليهم غرامة جسيمة كما فرض عليهم تقديم رهائن، لضمان حسن السلوك وأن يجانب السلم مائة عام مقابل شرائطهم وهو الحج إلى معبد إيزيس بفيلة، واستعارة تماثيلها من حين لآخر، فأعطاهم ماكسيمانوس ما أرادوا، لكن بعد موته ثاروا ضد روما فأخمد ثورتهم فلوروس حاكم الإسكندرية، وفي أواخر حكم جاستينيانوس الأول (٥٢٧ - ٥٦٥ م) إنتهى أجل إتفاقية ماكسيمانوس، حيث حاولوا الثورة فصب جاستينيانوس جام غضبه وأغلق معبد فيلة بدعوى أن وجوده كان مركزا للفساد والفتن، وحمل ما كان بالمعبد من تماثيل إلى القسطنطينية وزج بقساوسته في أعماق السجون، ورغم ذلك فلقد عادت هذه القبائل إلى مساواة مصر أيام حكم تيميريوس الثاني (٥٢٨ - ٥٨٢ م)، لكن قائد جيش الرومان أحمد ثائرتهم، وبعد ذلك إنشغل الروم برد عادية الفرس وتركوا قبائل الغرب والشرق تحكم نفسها .

ويبدو أن مسار التجارة والتجار خاصة السكندريون إستنادا إلى عدد من المؤرخين، أنهم حافظوا على مراكزهم التجارية في العصر البيزنطي في

إفريقيا، فلقد إستمر الإتصال مع بلاد الصومال وإثيوبيا دون إنقطاع، ويبدو أيضا أن النشاط الذى أبداه الإثيوبيون كوسطاء فى التجارة الشرقية لم يؤثر كثيرا على نشاط الإسكندرية فى هذا المجال، لكن من المؤكد أن توجه الطرق التجارية قد إتجه نحو البحر أكثر منه إعتماذا على البر نظرا لعدم إستتباب الأمن بين الرومان ثم البيزنطيين مع إفريقيا، بل يلاحظ فى أواخر هذه الفترة إهتمام مصرى أكثر بالاتصال البحرى مع القسطنطينية ، العاصمة الإمبراطورية الجديدة منذ ٣٣٠ م .

== علاقة مصر بجنوب شبه الجزيرة العربية ==

(اليمن)

مَهَيِّدٌ

لقد ظل موضوع العلاقات المصرية العربية غامضا ولا يزال ، رغم
الكشوفات الأثرية في كلتا المنطقتين فالتفسيرات تختلف من باحث لآخر،
ونفس الشيء لدى الدراسات الأجنبية التي إهتمت بالموضوع، إنه قبل إبراز
جوانب العلاقات المصرية العربية يعترضنا سؤالان أساسى فى الموضوع، وهو
متى بدأت الهوية العربية تتحدد فى العلاقات الخارجية مع الشعوب والدول
المجاورة ؟

تؤكد أغلب الدراسات أنه قبل القرن ١١ والقرن ١٠ ق م لا يكاد
المؤرخون يعرفون شيئا واضحا عن أية علاقات خارجية يظهر فيها العرب
كمجموعة بشرية لهم هوية محددة، سواء تحت إسمهم العام كعرب أو تحت
إسم آخر ينتمى لمنطقة أو لأخرى من المناطق التى تنقسم إليها شبه الجزيرة
العربية، وكل ما نعرفه فى هذا الصدد إما إشارة قد تشمل العرب وغيرهم ، أو
إشارات قد تشير إلى العرب فحسب ولكن تحت تسميات أخرى ، وفى مناطق
ربما نزحوا إليها من موطنهم الأصلى فى شبه الجزيرة العربية، أو ذكر لأقوام
من شبه الجزيرة العربية كانت لهم تحركات فى مجال هذه العلاقات، ولكنهم
إما يدخلون تحت الصفة السامية العامة، وإما يلتقون حول هوية جماعية يكاد

يقتصر نصيبها من الصفة العربية على انتمائها للمنطقة، والتي أصبحت تسمى فيما بعد بلاد العرب^(١).

وعلى سبيل المثال فإن النقوش المصرية القديمة طوال عهد الفراعنة ابتداءً من الألف الثالثة ق م، وحتى الغزو الفارسي لمصر في أواسط الألف الأولى ق م، لا ترد فيها لفظة عرب (ع ر ب) أو (أ ر ب) أو أية لفظة أخرى قريبة من هذا النطق، رغم وفرة هذه النقوش وغزارتها، ورغم كثرة أسماء الشعوب التي وردت ضمن هذه النقوش ممن احتكت بهم مصر في صورة أو أخرى في المراحل العديدة التي مر بها تاريخها في هذه الفترة، التي تشكل التخوم الشمالية لشبه الجزيرة العربية، في صورة متعددة من العلاقات السياسية التجارية أو العسكرية وكل ما تحضى به من اشارات في النقوش المصرية فيما يخص الموضوع الذي نحن بصدد الحديث عنه.

هو تسميات عامة مثل تسمية (عامو) أي الآسيويين، أو (تاعامو) أي أرض الآسيويين التي كانت تطلق على سكان ومناطق الصحراء الشرقية وسورية وفلسطين، والقسم الشمالى من شبه الجزيرة العربية ومثل (تا. نثر) التي كانت تشير إلى الأراضي الواقعة إلى شرقى وادى النيل بوجه عام، والتي كان مدلولها يتسع باتساع معرفة المصريين بالمناطق التي تشملها هذه الأراضي ونشاطهم فيها، حتى تشمل في عصر الدولة الحديثة المناطق الممتدة شرق مصر عبر المنطقة السورية حتى شمال العراق ومن ثم كان من الممكن أن يضم لامتدادات شبه الجزيرة العربية^(٢)

(١) لطفى عبد الوهاب يحيى ، " العرب في العصور القديمة

(٢) Breasted . " A history of Egypt

ويؤكد الدكتور لطفى عبد الوهاب يحى أن الألفاظ المحددة التى وردت فى هذه النقوش، والتى قد تشير إلى بعض المجموعات العربية، فهى الأخرى لا تعطينا صورة مباشرة فى هذا المجال، فلفظة (حبسيتو) التى ترد ضمن نقوش الدير البحرى (فى صعيد مصر) اثناء وصف البعثة المصرية التجارية التى وصلت فى عهد حتشبسوت (أواسط الألف الثانى ق م) إلى بلاد بونت على أنها نطق مصرى لكلمة (حبشات) وهى اسم قبائل ذات أصل عربى جنوبى، كانت تسكن منطقة (مهرة) فى جنوب بلاد العرب، وهاجرت إلى الساحل الإفريقى للبحر الأحمر واستقرت فى المنطقة وأعطتها اسمها (الحبشة)، ولفظة (جنبتيو) التى تصف جماعة جاؤوا إلى مصر فى عهد تحوتمس III (١٤٩٠ - ١٤٦٦ ق م) تحمّل إليهما هدايا من الصمغ العطرى ومن البخور ويرجح نفس الباحث أنها تشير إلى (القتبانين)، إحدى القبائل التى كانت تقطن العربية الجنوبية فى العصور القديمة.

ولكن فى القرن العاشر والقرون التى تليه بدأت تشهد تطورا محسوسا فى هذا الصدد، فمنذ ذلك القرن بدأت الهوية المحددة للعرب بشكل واضح فى العلاقات مع الشعوب المتواجدة بالمنطقة المجاورة لشبه الجزيرة العربية مثل العبرانيين والأشوريين والبابليين والفرس^(١).

وحقيقة هذه الهوية قد لا تظهر كتسمية للعرب، إنما تظهر بشكل إستنتاجى إنتسابا إلى مكان أو آخر، أو قوم أو آخر من الأماكن والأقوام التى وجدت فى شبه الجزيرة العربية مثل سبأ والسبئيين، سواء أكان المقصود هو

(١) عبد المنعم عبد العليم سيد، "الجزيرة العربية ومناطقها وسكانها فى النقوش القديمة فى مصر

سبأ الموجودة في جنوبي شبه الجزيرة العربية، أو أحد مستوطناتها في الشمال التي اتخذت الاسم نفسه ، مثل الدادانيين (أهل منطقة دادان - العلا الحالية) كذلك فإن الحالات التي تتخذ فيها هذه الهوية صورة تسمية مباشرة للعرب أو بلاد العرب، فإن هذه التسمية لا تعنى لغويا أكثر من البدو أو البادية التي يسكنها البدو .

جنوب شبه الجزيرة العربية أرضا وطبيعة

يشغل جنوب شبه الجزيرة العربية منطقة واسعة عرفت باسم التربة الجنوبية أو العربية السعيدة، وأكثرها شهرة اسم اليمن السعيد، ولقد اختلف الأخباريون في تفسير مدلول اليمن وقد ورد اسم اليمن في نصوص سبأ القديمة باسم يمانات ويمنت، وبديهي أنه اشتق من يمنت ، ولعل تعنى الخير، فلقد أكدت دراسات عديدة أنها كانت كثيرة الأشجار والثمار والزروع حتى عرفت باسم اليمن الخضراء، وبلاد السمن عرفت عند اليونان باسم بلاد العرب السعيد (ARABIA . FELIX) لكثرة خيراتها ومحصولاتها الزراعية، وتجارتها الراجحة^(١) .

أما الأخباريون فقد اختلفوا في تفسير مدلول اليمن حيث ذكر بعضهم أن اليمن سمى يمانا ليمنه والشام شاما لشؤمه وذكر لبن عباس أن اليمن سميت يمانا لأنها تقع يمين الكعبة وهو التمين، بخلاف الشام الذي سمى شاما لوقوعه شمال الكعبة، ويرد ياقوت على ذلك بقوله : (قولهم تيامن الناس فسموا اليمن

(١) سيد عبد العزيز سالم ، " دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام .

فيه نظرا لأن الكعبة مربعة ، فلا يمين لها ولا يسار، فإذا كانت اليمن عن يمين قوم كانت عن يسار آخرين، وكذلك الجهات الأربعة إلا أن يريد بذلك من يستقبل الركن اليماني فإنه أجلاها، فإذا يصح) والمرجح أن تسميتها ترجع إلى كلمة يمنات المذكورة ويحدد بالتالي اليمن السعيد فيما يعرف بجنوب شبه الجزيرة العربية كله حيث تمتد المنطقة على سواحل المحيط الهندي جنوبا، ويحدها البحر الأحمر غربا، والحجاز شمالا، والخليج العربي شرقا، وهو ما يذهب إليه رأى آخر إلى أن اليمن قطعة من جزيرة العرب. يحدها من الغرب بحر القلزم، ومن الجنوب بحر الهند، ومن الشرق بحر فارس، ومن الشمال حدود مكة، وهذا يتفق مع رأى غلاسير فقد حددها بكل الوقع الواقعة في جنوب الجزيرة العربية، ثمند غير عسير إلتى المحيط الهندي ومن البحر الأحمر إلى الخليج^(١).

من هنا يظهر وأن اليمن كان يشمل كل دويلات شبه الجزيرة محل الدراسة (معين ، سبأ ، حضرموت أو سان، قتيان).

والملاحظ أن الإغريق والرومان قسموا شبه جزيرة العرب إلى أقسام ثلاثة:

١ . العربية السعيدة

٢ . العربية الصخرية وترجمت بالعربية الحجرية (ARABIA PETREA).

٣ . العربية الصحراوية (ARABIA DESERTA).

(١) عدنان الترسي ، " اليمن وحضارة العرب " .

ويؤكد د . جواد على أن هذا التقسيم يتفق من الناحية السياسية التي كانت عليها البلاد العربية في القرن الأول الميلادي، فالقسم الأول مستقل، والثاني قريب من الرومان، ثم أصبح تحت نفوذهم، وأما القسم الثالث فهو البادية إلى نهر الفرات، ولقد أشير إلى العربية السعيدة والعربية الصحراوية في الموارد (الكلاسيكية) القديمة، مثل جغرافية (سترابون)، ويرى بعض العلماء أن القسم الآخر وهو (العربية الصخرية) (ARABIA . PETREA)، هو من إضافة (بطليموس) العالم الجغرافي الشهير، وقد قصد به بركة شبه جزيرة سيناء وما يتصل بها من فلسطين إلى الأردن، فهو في رأي هؤلاء أحدث عهدا في التسمية من التسميتين الآخريين، ولم يأخذ الجغرافيون العرب بالتقسيم (الكلاسيكي) مع أنهم وقفوا على بعض مؤلفاتهم كجغرافية بطليموس، إلا أن جزيرة العرب عندهم هي العربية (السعيدة) في اصطلاح أكثر الكتاب الاغريق والرومان.

ومن هنا فالعربية السعيدة ويقال لها (ARABIA - BEATA) في الاغريقية هي اكبر الاقسام الثلاثة رقعة، وتشمل كل المناطق التي يقال لها جنوب جزيرة العرب في الكتب العربية، كما يفهم من بعض المؤلفات وليس لها حدود شمالية ثابتة، لأنها كانت تتغير على حسب الأوضاع السياسية، ولكن يمكن القول أنها تبدأ في رأي أكثر الكتاب الاغريق والرومان من مدينة (هيرونوبوليس HEROONOPOLIS) على مقربة من خليج السويس الحالية، ثم تسير حدود العربية الحجرية الجنوبية، ثم تخرق الصحراء فتتصل بمناطق الأهوار.

وقد أدخل بعض الكتاب هذه الحدود في جنوبها إلى أن تتصل بمصب شط العرب في الخليج، وتمر حدود العربية السعيدة الشمالية بالبادية الواسعة التي هي جزء من النفوذ. حيث عرفت عند الاغريق بـ (EROMOS) وهي امتداد لبادية الشام.

وبلاحظ أن النصوص العربية الجنوبية لم تثبت حدود اليمن، وذكرت في نص يعود إلى أيام (شمر يهرعش) المعروف عند المؤرخين المسلمين باسم (شمر يهرعش)، بعد حضرموت في الترتيب على أنها منطقة صغيرة غامضة التحديد.

أما طبيعة بلاد اليمن، فإنها تمتاز على غيرها من الأقطار العربية بجبال شاهقة وشديدة الانحدار، وغناها بالمواد المعدنية وصعوبة المواصلات. تتفرع هذه الجبال من سلسلة جبال السراة المشهورة، إلى ثلاثة سلاسل تمتد السلسلة الأولى محاذية لمنطقة تهامة من الجهة الشرقية حتى تصل إلى الطائف، وتمتد السلسلة الثانية وسط المنطقة الجبلية تبتدىء من الشمال هي: جبال صعدة ثم جبال بلاد الشرفين وجبال حجة، وجبال كوكبان والخيمة وآنس وحراز، وفي الجنوب صعدة، ثم جبال بلاد تعز، وتشمل جبال إب والعدين ... شبام، حضرموت، هذه أهم الجبال بالمنطقة، وبها تقع أشهر المدن ذات التاريخ المجيد مثل: صنعاء، ذمار، يريم وإب، وتعز والبيضاء ... وصعدة وحجة^(١).

(١) زيد على عتات، "تاريخ اليمن القديم".

وتتخلل جبال السراة التى تخترق اليمن من الشمال إلى الجنوب حتى البحر، الأودية التى تنساب فيها مياه الأمطار، وتمتد بين الهضاب، ويخترق الهضاب المهيمنة على عدن عدد من الأودية الجافة، يظهر وأنها كانت مسایل مياه، وأنها من بقايا أنهار جفت، وتسيل فى بعضها المياه عند سقوط الأمطار.

ويخترق حضرموت واد الساحل، يبلغ طوله بضع مئات من الأميال، ويتألف سطحه من أرض متموجة تتخلها أودية عميقة تكثر فيها المياه الباطنية، وفى حضرموت حجارة بركانية ومناطق واسعة يظهر أنها كانت تحت تأثير البراكين، ويزرع الناس بالمناطق حيث يحرفون الآبار، إضافة إلى أن هناك نهر يقال له نهر حيجر أما إقليم ظفار فيمتد من سيحوت إلى حدود عمان، وهو هضبة يبلغ إرتفاعها ٣٠٠٠ قدم، تهب عليها الرياح الموسمية، وفوق جبالها تنمو أشجار الكندر التى إشتهرت بها بلاد العرب قبل الإسلام، وتشققها طولاً وعرضاً أودية تكسوها الأعشاب وتتخللها الأشجار وتوجد بها عيون، ويمكن الحصول على المياه بحفر الآبار، وتتألف أرض عمان من أماكن جبلية وهضاب متموجة وسهول ساحلية، وأكثر حجارتها كلسية وجرانيتية، وفيها أيضاً حجارة بركانية، والظاهرة أنها كانت من مناطق البراكين، وفى مناطق التلال عيون ومجارى مياه معدنية أكثرها ذات درجات حرارة مرتفعة، وتوجد بها آبار فى المناطق المجاورة للصحراء وفى الأقسام الشرقية من عمان وتتخلل هضابها وجبالها أودية معظمها جاف، وتكون طرق المواصلات بين الساحل والأراضى الداخلية ويتميز جوها بكونه حار إستوائى وتجه الجبال فى عمان من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى، وأعلى قمة فيها هى قمة الجبل الأخضر، ويبلغ إرتفاعها تسعة آلاف قدم، والأراضى المحيطة بهذا الجبل خصبة

وقابلة للإستثمار، وفي عمان مدن قديمة منها (صحار) و (نزوة) و (دبا)
أو (دما) .

أما عن المناخ فإن التقلبات الجوية واضحة في اليمن وخصوصا المنطقة
الجبلية، فالرياح تهب بسرعة والأمطار تنزل بغزارة ، حتى أن بقاع اليمن
تتقلب بعد هطول الأمطار إلى سيول جارفة وبحيرات واسعة ، وذلك لإحاطة
اليمن بثلاثة بحار، البحر الأحمر غربا ، والبحر العربي وخليج العربى وخليج
عمان في الشرق. فالرياح الحاملة للأمطار على سائر الهضبة، ومعلوم أن اليمن
يقع ضمن المناطق الموسمية ، ويبدأ موسم أمطار الصيف من أوائل شهر شباط
(فبراير) وتستمر إلى نصف شهر نيسان (أبريل) ، وأما أمطار الخريف فإنها تبدأ
من أوائل شهر حزيران (يونيه) وتستمر إلى نهاية شهر أغسطس، ولا يسقط
المطر في الشتاء الذي يبدأ من شهر أيلول (سبتمبر) إلى نصف شهر كانون
الأول إلا نادرا في بعض السنين . وتتراوح درجات الحرارة في منطقة تهامة
الممتدة على طول ساحل البحر الأحمر ما بين ٢٥° إلى ٣٥° في الشتاء ،
ومن ٣٥° إلى ٤٥° في الصيف ، ودرجة الرطوبة مرتفعة، ودرجة الحرارة في
المنطقة الجبلية فإن معدلها يتراوح ما بين ٣° م تحت الصفر إلى ٢٠° فوق الصفر
في فصل الشتاء ، وما بين ١١° م إلى ٢٢° م صيفا ، وقلة في الرطوبة بالمنطقة
الجبلية .

واليمن تقع في المنطقة الحارة في خط عرض ١٤° شمال خط الإستواء،
ونظرا لإرتفاع المنطقة الجبلية باليمن عن سطح البحر كجبال النبي شعيب
غرب صنعاء ٣٧٥٠ م وإرتفاع العاصمة صنعاء ب ٢١٥٠ م ، فإن المنطقة الجبلية

معتدلة في الشتاء والصيف وهي منطقة زراعة البن اليمني المشهور . وفي المناطق المرتفعة تزرع جميع أنواع الفواكه ومنها العنب (٢٨ نوع) .

وأخيرا يمكن القول أن طبيعة بلاد العرب، وخصوصا جنوب شبه الجزيرة لم تدرس دراسة علمية مستفيضة شاملة، رغم قيام بعثات علمية بالبحث والتنقيب، بما في ذلك الشركات الأجنبية في مختلف أنحاء المنطقة، عن طبيعية تربتها للتوصل بذلك إلى اكتشاف ما في باطنها من ثروات، فأرض الجزيرة العربية أرض واسعة تغطي الرمال أكثر مساحتها، فليس من السهل البحث فيها بحثا علميا عميقا عن تركيبها وتطورها في كل أنحاء لها هذا كان علمنا بهذه النواحي من البحث ضحلا مختصرا في الغالب .

علاقة مصر بجنوب شبه الجزيرة العربية في عهد الفراعنة

إن الظاهرة الملفتة للنظر في موضوع العلاقات بين شبه الجزيرة العربية وبين مصر في العصور القديمة خاصة في العصر الفرعوني، أن عددا من الباحثين يؤكدون أن الاسم المألوف للجزيرة العربية والذي عرفت به قديما هو أحد اشتقاقات المقطع (ع ر ب) أو (أ ر ب) لم يرد على الإطلاق في النقوش المصرية التي ترجع للعصر الفرعوني نفسه، فطوال ذلك العصر، كان المصريون يطلقون أسماء عامة على سكان المناطق الواقعة إلى الشرق من مصر ومن شمالها الشرقي، مثل (شاسو)، (منتو)، (أبونتيو) وأكثر الأسماء

شيوخاً في النصوص الهيروغليفية هي كلمة (عامو)^(١)، وكانت تطلق على سكان الصحراء الشرقية وسيناء وسوريا وفلسطين وشمال الجزيرة العربية، أى على ما يمكن أن يسمى بالعناصر (البدو) السامية، وأقدم كتابة لهذه الكلمة ترجع إلى الدولة القديمة الفرعونية (٢٥٠٠ ق م). ويقول المختصون في اللغة الهيروغليفية أن كلمة (عامو) كثيراً ما جاءت في جملة وصفية هي (حريو - شع) بمعنى سكان الرمال، وظهرت كلمة (عامو) بشكل أكثر دلالة على المكان وتقرأ (تا - عامو) بمعنى (أرض بلاد الآسيويين)، وقد أطلقت على المنطقة الواقعة شرق مصر والتي تشمل سوريا وفلسطين وسيناء وبلاد العرب، وأن هذه التسمية كانت ترد أحياناً في النصوص المصرية كنوع من المقابلة مع التسمية (تا - نحسيو)، أى (بلاد السود) التي تشمل المناطق الواقعة جنوب مصر.

وإزاء عدم وجود اسم خاص بالجزيرة العربية في النصوص الهيروغليفية وغيرها من النصوص التي ترجع للعصر الفرعوني إتجهت الأنظار للبحث عن مسميات ذات مدلول يتصل بالجزيرة العربية، سواء من ناحية الموقع أو من ناحية التشابه في الطبيعة النباتية أو التشابه في ملامح السكان ومميزاتهم الثقافية أو حتى التشابه مع أسماء القبائل والشعوب العربية، وأهم المسميات التي جذبت الباحثين في هذا الصدد عبارة (تا - نثر) بمعنى (أرض الإله)، وأيضاً كلمة (بونت) التي تحدد مدلولها منذ عصر الدولة الوسطى الفرعونية بسواحل البحر الأحمر الجنوبية، التي كان المصريون يحصلون منها على (البخور)، وكان منشأ الارتباط في أذهان الباحثين بين هذين المسميين وبين

(١) عبد السمعم عبدالمليم سيد، " الجزيرة العربية ومناطقها وسكانها في النقوش القديمة في مصر

الجزيرة العربية، أن الجزيرة العربية وخاصة مناطقها الجنوبية اشتهرت بأنها سوق في العالم القديم لتجارة وإنتاج البخور. وهناك إسم آخر ورد على الآثار من عصر الفرعون تحتمس III (الملك لتالي لحتشبسوت) هو (جنبتيو)^(١) . وقد أطلقت النصوص المصرية المصرية هذا الاسم على جماعة جاءت إلى مصر في عصر هذا الفرعون تحمل إليه هدايا من الصمغ العطري ومن البخور، من ذلك النوع الذي ارتبط بمناطق البحر الأحمر (بونت)، وهو الذي كان المصريون يسمونه (عنتب).

وهناك دراسة عميقة لهذا الموضوع للدكتور عبدالعزيز صالح رجح فيها أن يكون هؤلاء (الجنبتيو) من القبائل العربية الجنوبية المعروفة بالقبائين، الذين كانوا يسكنون جنوب الجزيرة العربية التي اشتهرت في التاريخ القديم بإنتاج البخور، فالمقصود إذن بأرض الإله المذكورة سالفاً في النصوص المصرية - خاصة في عصر الدولة الحديثة المناطق الشرقية التي كانت الجزيرة العربية جزءاً منها، وهي في بعض هذه النصوص الجزيرة العربية نفسها كما يرى الدكتور عبدالعزيز صالح.

هذه الأسماء الواردة هي كل ماورد على الآثار المصرية مما يشير إلى نوع من الارتباط مع الجزيرة العربية سواء من حيث الموقع (نا نثر = المناطق الشرقية) أو من حيث التشابه في النشاط الاقتصادي الغالب (تجارة البخور)، أو من حيث التشابه في الأسماء (جنبتيو = قتباليون، خبستيو = حبشات، عمو أو عامر = آسيويون)، أما الأسماء التي تشبه المسميات المعروفة

(١) GAUTHIER (H). "Dictionnaire des Noms Geographiques Contenus dans les Textes Hieroglyphiques".

لجزيرة العرب أو لمناطقها فبعضها يشبه المقطع (ع ر ب) أو (أ ر ب)، وبعضها يشبه كلمة (سبأ)، وبعضها يشبه اسم إحدى مناطق قهامة.

وبلاحظ الدكتور عبدالعزيز صالح في دراسته للموضوع من الوجهة الأثرية، أن كل ما كتب من أسماء مصرية قديمة للجزيرة العربية ومناطقها مما دون بالخطين الهيروغليفي والديموطيقي على الآثار المصرية القديمة فإن أغلبها غامض وغير محدد، ويرجع سبب ذلك إلى إنعدام وجود صلات مباشرة بين مصر الفرعونية وبين الجزيرة العربية، وخاصة سكان المناطق الجنوبية منها، وفي رأيه أن ذلك ربما يرجع إلى إحجام المصريين عن الاتصال بجنوب شبه الجزيرة العربية، لصعوبة الوصول إليها بالطريق البري الشاق عبر الصحراء، وبالطريق البحري الذي يضطربهم إلى الإبحار في عرض البحر الأحمر، والتعرض لمخاطر الملاحة التي اشتهر بها البحر، ولا سيما أنه لا يوجد ما يدفعهم إلى تجشم هذه الأخطار: فقد كان في استطاعتهم الحصول على أهم سلعة تنتجها جنوب شبه الجزيرة العربية وهي البخور من المناطق الإفريقية، حيث تتوفر هذه السلعة وحيث يمكنهم الوصول إليها بنفسهم بطريقة المساحلة، أي التزام الساحل الإفريقي للبحر الأحمر دون التعرض لخطر الإبحار في عرض البحر.

غير أنه منذ أواخر العصر الفرعوني، وخلال عصر البطالمة وماتلاه من عصور عندما برز النشاط العربي التجاري في البحر الأحمر، أخذ التجار العرب يتوافدون على مصر، وبدأ نوع من الاتصال المباشر بين مصر وبين الجزيرة العربية، فكان هذا الاتصال من جانب سكان الجزيرة العربية، وبلاحظ هذه الظاهرة بوضوح في كثرة النقوش العربية القديمة على صخور الصحراء

الشرقية وخاصة على جوانب الطرق القادمة من الموانئ القديمة على ساحل هذه الصحراء، حيث توجد المداخل التي كان يفد عن طريقها هؤلاء التجار العرب مخترقين الطرق القادمة منها والمؤدية إلى وادي النيل.

وأقدم نقش عربي في مصر يوضح ظاهرة توافد العرب الجنوبيين تجارا على مصر واستقرارهم فيها، هو النقش المدون بالكتابة العربية الجنوبية على تابوت التاجر المعيني (أو الكاهن) زيد إيل، حيث أنه يلقي ضوءا على نشاط العرب في مصر منذ عصور البطالمة، ويوضح مدى اندماج هؤلاء العرب واتباعهم العادات المصرية (حُط على طريقة المصريين ووضع في تابوت). ويالتالي فهذا النص يشير إلى النشاط التجاري الذي كان يمارسه العرب في مصر، وهو تجارة البخور واللبان التي تنتجها جنوب شبه الجزيرة العربية، كما يشير هذا النص إلى أن هذا النشاط كان بالبحر وليس بالبر. وتبين من دراسة النقوش أنها نوعان: نقوش سامية جنوبية (سبئية معينة)، يوجد أغلبها في الطرق التي تخترق الوديان الجنوبية التي تربط بين النيل والبحر الأحمر مثل وادي الحمامات ووادي عباد، ثم نقوش سامية شمالية أغلبها نقوش نبطية. وتوجد على صخور الطرق في الوديان الشمالية مثل وادي الحزامي ووادي حمامة أم ضلعة ووادي أم عنب وتقع النقوش الشمالية على امتداد طريقين رئيسيين هما: طريق ميوبي هرموس (MYOSHORMOS) وطريق فيلوتيرا (PHILOTESA) ويبدأ هذا الأخير من الميناء الذي يحمل هذا الاسم (فيلوتيرا)، ومكانه الآن مرسى جواسيس الواقع جنوب ميناء سفاجة بحوالي ٢٢ كلم، وقد أنشئ هذا الميناء في العصر البطلمي في موقع ميناء أقدم يرجع إلى الدولة الوسطى الفرعونية، وهو الميناء الذي كشفت عنه بعثة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية، ويمتد طريق فيلوتيرا نحو الغرب مارا بوادي

الحضاضى ووادى حمامة حيث توجد النقوش النبطية، ومنها يتجه إلى قنا على النيل والطريق الأخرى الذى توجد به النقوش السامية الشمالية يبدأ من ميوس هرموس الذى أنشئ فى عصر البطالمة أيضاً، ومكانه الآن أبو شعر القبلى، الواقع شمال مدينة الفردقة بحوالى ٢٠ كلم.

ويبدو أنه كان أكثر أهمية من ميناء فيلوتيرا بدليل كبر حجم الحصن به وكثرة البقايا اليونانية والرومانية به بالنسبة لميناء فيلوتيرا الذى لا توجد به آثار تذكر، وهذا فضلاً عن وجود عدد من المحطات الرومانية المحصنة على طول الطريق القادم من ميوس هرموس والمتجه نحو قنا، ويتفرع طريق ميوس هرموس إلى فرعين، يمر الشرقى منهما بمنطقة أم ضلعة وأم عنب حيث توجد النقوش النبطية، ثم يتجه إلى أم دقال وجبل كلاوديانوس (MONS CLAUDIANUS)، ثم يلتقى هذا الفرع الشرقى من الطريق بطريق فيلوتيرا بالقرب من منطقة النقوش النبطية فى وادى الحضاضى، حيث يكونان طريقاً واحداً يتجه نحو قنا والفرع الغربى من الطريق القادم من ميوس هرموس يتجه إلى منطقة بئر قطار، حيث توجد المجموعة الثانية من النقوش النبطية، ويتضح من وفرة النقوش النبطية على جوانب هذه الطرق الشمالية وبالذات الطرق القادمة من ميناء ميوس هرموس أنه يرجع إلى قرب هذا الميناء المعروف فى عصر اليونانى الرومانى باسم لويكى كومى (القرية البيضاء) (LEUKE - KOME) وربما كان يوجد مكان ميناء المويلح الحالى أو أم الخريبة، أم غيرها من موانئ شبه الجزيرة العربية.

ولعل هذا مايفسر لنا أيضاً وجود النقوش العربية الجنوبية (المعينية والسبئية) على صخور الطريق الجنوبية مثل وادى الحمامات ووادى

عباد، وقتلتها على صخور الطرق الشمالية، حيث أن الموانئ الواقعة عند بداية هذه الطرق على ساحل البحر الأحمر كميناء القصير أقرب إلى مواطن أصحاب هذه النقوش من سبئيين ومعنيين، وحتى سكان العلا التي يرجح أنها عاصمة المستوطنة المعينية المعروفة في النقوش العربية القديمة باسم (معان مصران)، فإن أقرب ميناء إليها هو ميناء (الوجه) الواقع قبالة ميناء القصر، ولقد وردت كلمة (معين) أو (المعيني) في نقش عند بئر منيح، الذي يقع على الطريق القديمة المتفرعة من طريق وادي الحمامات والمتجه جنوباً إلى وادي عباد، ثم ميناء برنيكي القديم الواقع على ساحل البحر الأحمر قبالة أسوان تقريباً^(١).

وهكذا حوت صخور صحراء مصر الشرقية أقدم سجلات مباشرة للنشاط العربي القديم في مصر، وقد مارس سكان الجزيرة العربية هذا النشاط قادمين من بلادهم على البحر الأحمر، وهذا يؤكد ما قاله بعض العلماء بأن المبادرة بالاتصال بين مصر وبين شبه الجزيرة العربية في العصور القديمة كانت تأتي من سكان الجزيرة العربية لا من سكان مصر، الذين كانت إتصالاتهم المباشرة في عصر ازدهار نشاطهم وخاصة في العصر الفرعوني، عندما كان زمام المبادرة بالنشاط في أيديهم تتجه أساساً إلى الساحل الإفريقي للبحر الأحمر دون ساحله الآسيوي، باستثناء شبه جزيرة سيناء.

ونؤكد أن هناك حقيقة هامة تتلخص في أن الهجرات بدأت تفد إلى مصر من بلاد العرب منذ الألف الرابعة قبل الميلاد^(٢)، لأن شبه الجزيرة العربية فيما

(١) حواد على، " المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ".

(٢) محمد يومي مهران، " تاريخ العرب القديم "

يرى الخزان البشرى الشهير الذى لم يتوقف عن أن يقذف - كإقليم طرد وكصحراء فقيرة ولكنها ولود- بالموجه تلوا لموجة إلى منطقة الهلال الخصيب المتاخمة والجذابة وإلى وادى النيل عبر البحر الأحمر أو عن طريق سيناء.

ويلاحظ بحث حديث للدكتور محمد عبدالقادر محمد أن العرب الساميين استمروا فى التسلل إلى مصر على شكل تجار مسالمين وأسرى حرب عبر سيناء مستنداً إلى نصوص تحتمس الثالث وامنحتب الثانى وغيرهما حيث أنها مليئة بالشواهد على ذلك. ويخلص إلى القول إلى أنه منذ العصور القديمة لم يتوقف سيل العرب الساميين إطلاقاً إلى مصر، وهم يكونون العنصر الرئيسى من الشعب المصرى^(١).

لقد كانت مصالح مصر فى القرن الإفريقى ترتبط دائماً بمصالحها فى جنوب غرب الجزيرة العربية فقد أكد عدد من الباحثين أن بلاد بونت التى كان المصريون يتاجرون معها تشمل المناطق الواقعة على جانبى مضيق باب المندب، سواء من الجانب العربى أو الجانب الإفريقى بما فى ذلك جزيرة سوقطرة، كما أن التركيب الاثنولوجى للشعب المصرى ووضع مصر الجغرافى جعلها حلقة وصل بين العنصر السامى والعنصر الإفريقى منذ فجر التاريخ، فسكان مصر فى العصر الحجري القديم الأعلى كانت لهم قرابة مع أجناس شمال غرب افريقيا وفى العصر الحجري الحديث دخل العنصر السامى ثم توالى توافد المهاجرين إليها من الصحارى الآسيوية العربية واستقروا فى صحراء مصر الشرقية مشكلين حلقة وصل بين سكان الجزيرة العربية وبالتالى

(١) محمد عبدالقادر محمد، "العلاقات المصرية العربية فى العصور القديمة".

الشعوب الافريقية وبالرغم من أن الهجرات العربية القديمة إلى وادى النيل لم تكن شاملة وكافية، فقد كان أغلب سكان مصر من السلالات الافريقية، مع قرابة واضحة بالعناصر الحامية القادمة من غرب افريقيا عن طرق ليبيا^(١).

إلا أن العلماء يخلصون إلى وجود اتصال عرقى بين أهل مصر وشعوب افريقيا وسكان شبه الجزيرة العربية منذ فجر التاريخ، كذلك وأن موقعها الجغرافى جعلها تقوم مقام الجسر الذى يربط بين البلاد العربية و افريقيا، فقد كانت ممرا لموجات الهجرات من الجزيرة العربية إلى الشمال الافريقى، واقدم مثال على ذلك نجده فى هجرة البربر، الذين تدل الابحاث على أنهم تحركوا فى العصر الحجري الحديث من عمان أو اليمن نحو القرن الافريقى ومنه عبر الصحارى المصرية حتى شمال افريقيا، حيث اختلطوا بشعوبها الافريقية مكونين امتزاجا بين العنصرين الافريقى والعربى، فى المجالات الحضارية اللغوية والدينية، ولقد كان الجغرافيون التهدماء حتى منتصف الألف الاولى قبل الميلادى يعتبرون قارة افريقيا جزءا من قارة آسيا، لكن منذ عام ٥٠٠ ق م، بدأوا يفصلون بين هاتين القارتين، فجعلوا صحراء مصر الشرقية الواقعة شرق النيل هى الحد الفاصل بين قارتى آسيا و افريقيا، فمثلاً يعتبر هيرودوت هذه الصحراء ليست جزءا من مصر بل جزءا من الجزيرة العربية، فقد أطلق على خليج السويس اسم الخليج العربى، وجعله الحد الفاصل بين افريقيا وبلاد العرب.

والملاحظ أن دور دول جنوب شبه الجزيرة العربية بدأ يظهر على الساحة الدولية منذ القرن الحادى عشر ق م عندما تدهورت القوتان العظيمتان

(١) سيد أحمد على الناصرى، "المصريون والعرب وعلاقتهم بافريقيا فى العصور القديمة".

فى الشرق الأدنى وهما مصر وبلاد الرافدين، وعلى إثر ذلك برزت دويلات صغيرة فى شبه الجزيرة العربية فى الازدهار الاقتصادى، معتمدة على التجارة الشرقية والأفريقية، والواقع أنه رغم غموض العلاقات المصرية العربية فى العهد المصرى القديم وعدم اتضاح هذه الصلات المباشرة، فإن الدراسات الحديثة أشارت إلى أنه خلال العصر المذكور كان هناك نوع من الصلات غير المباشرة بين الجزيرة العربية، والتى أثرت بدورها فى الحضارة المصرية، ويسمى البعض هذا الاتصال على أنه صورة من صور الظاهرة المعروفة فى تاريخ الحضارات بالانتشار الحضارى (CULTURAL DIFFUSION)، وكان طريق انتقال هذه التأثيرات من مصر إلى شبه الجزيرة العربية أو العكس هو شبه جزيرة سيناء ومنها إلى الطريق التجارى الشهير الذى يطلق عليه المؤرخون (طريق الذهب والبخور)، إشارة إلى أهم السلع التى كانت تنقل عبر هذه الطرق التى كانت تسير بمحاذاة الساحل الآسيوى للبحر الأحمر فى مناطق الظهير الممتدة وراء هذا الساحل، ويمر بالمحطات التجارية التى قامت على جوانب هذه الطريق فى الحجاز واليمن، والواقع أن شبه جزيرة سيناء كانت منذ أقدم العصور بمثابة نافذة للحضارة المصرية القديمة^(١)، حيث أن الساميين سكان سيناء نقلوا أسباب الحضارة المصرية، وأصبحوا همزة وصل فى انتقال التأثيرات الحضارية المصرية إلى سائر الساميين فى شبه الجزيرة العربية، إذ انتقلت الكتابة البروتوسينائية إلى هذه المنطقة، وتفرعت منها الأبجدية السامية الجنوبية التى وجد بها أشكال وعلامات هيروغليفية مصرية وذلك رغم تأكيد عدد من الباحثين والعلماء على أن الأبجدية العربية الجنوبية أسبق فى

(١) عبد المنعم عبد الحليم سيد، " الأصول المصرية القديمة وبعض المظاهر الحضارية فى الجزيرة العربية قبل الإسلام ".

إشتقاقه من البروتوسينائية من الأبجدية العربية الشمالية حيث ظهر في الجنوب خط المسند.

إضافة إلى ذلك فلقد عثر على موالد القربان المصرية القديمة في مذبح معينى وجد باليمن. كذلك وجدت مذابح بخور يمنية بمصر في سيرايبط الخادم (سيناء حديثاً)، مما يدل على أن المصريين عرفوا هذا النوع من المذابح السامية، وهو دليل في حد ذاته على تأثير سامي في العبادات المصرية في سيناء، ودليل آخر على ذلك هو ظاهرة وجود التطهير والاغتيال في المعابد السامية، عثر عليها في صرواح عاصمة مكارب سبأ باليمن وهو حوض للمياه محاط بأعمدة داخل المعبد، وهو نفس الشكل الذي عثر عليه بمعبد سيرايبط الخادم بمصر والملاحظ أنه لم يعثر على أحواض أخرى بمصر على غرار الحوض المذكور، وهو ما يدعم وجود تأثير سامي (دينى) في العبادات المصرية^(١).

ويظهر التأثير المصرى بحوض التماثيل اليمنية، منها التماثيل البرونزية المشهورة (لمعد يكرب) الذى وجد في حرم بلقيس في مأرب، ويرجع للقرن السابع أو السادس ق م. كذلك هناك في اليمن أمثلة من الزخارف المعمارية والصناعية تشبه إلى حد كبير الزخارف المصرية، منها لوحة سبئية مشهورة محفوظة في متحف اسطنبول، وهناك أمثلة عديدة التى تكون فى مجموعها أدلة واضحة على وجود تأثير متبادل. بالرغم ما لحق هذه المؤثرات من تحويل وتعديل من ذلك مكتشفات قرية الفاو في السعودية^(٢).

(١) PETRIE (M.F.). "Researches in Sinai".

(٢) د. عبدالرحمن الطيب الأنصاري، " قرية الفاو صورة للحضارة العربية قبل الاسلام ".

علاقة مصر بجنوب شبه الجزيرة العربية أثناء حكم الأجانب

الملاحظ أن كلتا المنطقتين شبه الجزيرة العربية ومصر تأثرتا بالصراع الدولي على البحر الأحمر وتفاعلتا معه سلبي وإيجاباً حيث سعت الأمم الكبرى القديمة إلى مد نفوذها على المنطقة منذ بداية وصولها إلى المنطقة نظراً لحيويتها وأيضاً بدعوى سيادة الأمن والسلام. ولقد أدى هذا التنافس حول المنطقة إلى نوع من الصراع بين القوى العظمى القديمة حيث تأثرت شبه الجزيرة العربية بهذا الصراع بحكم امتدادها الطويل بين البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي والبحر المتوسط شمالاً. ويؤكد المؤرخون على أن الاسكندر المقدوني قد لفت أنظار العالم إلى أهمية البحر الأحمر وضرورة الكشف عن أغواره وأسواره وذلك بعد أن أتم سيطرته على البحر المتوسط عام ٣٣٢ ق م^(١).

لكن قبل مجيء الاسكندر فقد سعى المصريون القدماء إلى فرض نفوذهم على البحر الأحمر، ومن الكيانات السياسية المستقلة التي قامت على سواحل شبه الجزيرة العربية وارتبطت بتأثير النفوذ المصري مثل مملكة معين التي قامت عند مدخل البحر الأحمر قبل القرن الحادي عشر ق م، والتي نشطت حتى أصبح لها محطات تجارية تابعة لها على طول طريق القوافل عبر الحجاز من أهمها مستوطنة معين مصران (دادان) والحجر (مدائن صالح) وبالرغم من أن قوى أخرى نافست المصريين على تجارة البحر الأحمر مثل .. ومروأكاد إلا أنها كانت قوى صغرى مفككة متعادية، كما أن اهتمامها كان مركّزاً على الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية ومن ثم لم تشكل هذه

(١) سيد أحمد على الناصري، "الصراع على البحر الأحمر في عصر البطالمة".

القوى خطراً على النفوذ المصرى على الساحل الغربى للجزيرة العربية، ولما تقلص النفوذ المصرى فى القرنين الثانى عشر والحادى عشر أصبح هناك فراغ كبير فى البحر الأحمر، مما فتح المجال واسعاً أمام السياسة التوسعية الآشورية للتوسع بالمنطقة وملء الفراغ، وبالتالي ورثت الامبراطورية الآشورية كل نفوذ مصر فى البحر الأحمر.

ولقد أقام الفراعنة صداقة مع دولة معين كما أقاموا علاقات مع مستوطناتها فى الحجاز وفى دإدان (معان مصران: العلا الحالية) ذاتها، وربما كان أيضاً لمصر علاقة وطيدة مع الثموديين وخاصة منذ عصر الدولة الحديثة حيث قام سرجون الثانى (٢٢٢ - ٢٠٥ ق م) بتصفية الوجود المصرى فى شمال الحجاز ممثلاً فى الثموديين بسبب وقوفهم ضد آشور، وبعدهم فعلت بابل نفس الخطوة للقضاء على النفوذ المصرى فى شمال الحجاز، ومحاولة مد نفوذها جنوباً على شبه الجزيرة العربية لصعوبة إخضاع منطقة شبه الجزيرة العربية خاصة مد النفوذ نحو الجنوب فان الآشوريين لجأوا إلى الاكتفاء بفرض نفوذهم السياسى المباشر فى هذه المنطقة وذلك بإسقاط الحكومات التى تتعاون مع مصر، ومن هنا فان الاجتياح الآشورى لمصر والحجاز أثر على العلاقات العربية المصرية، فضلاً عن التغيير السياسى بشبه الجزيرة العربية، حيث يرى بعض المؤرخين أن المكاربة السبئيين أطاحوا بدولة معين الصديقة لمصر، وقد تم ذلك بتأييد من ملوك آشور، الذين كانوا على علاقة وطيدة بملوك سبأ، والذين كانوا يمثلون مصالح آشور فى جنوب الجزيرة العربية، وكذا فالملك الآشورى سرجون الثانى كان على علاقة حسنة مع أحد ملوك سبأ. ومن هنا فإن سقوط معين فى وقت تلى سقوط مصر على أيدى الآشوريين، ثم قيام حكم السبئيين يؤكد اعتقادنا بوجود صداقة بين مصر

الفرعونية وملوك معين، تماماً مثلما حدث مع الثموديين في الحجاز، وبالتالي ارتباط العلاقات المصرية العربية الجنوبية القديمة بتأثير القوى الخارجية، وتنافسها على المنطقة من حين لآخر. وتوضح قمة هذه العلاقات العربية الجنوبية القديمة المصرية فيما أكده عدد من المؤرخين من أنه تكونت جبهة قوية من المصريين والعرب والبابليين، وألحقت ضربة قاضية بالإمبراطورية الآشورية وهزمت جيوشها وسقطت نينوى عام ٦١٢ ق م .

ومنذ فترة الأسرة الصاوية (٦٦٢ ق م - ٥٢٥ ق م) بدأت مصر تسترجع قواها في محاولة لاسترجاع نشاطها البحري في البحر الأحمر، تجلت في عمليات الكشف الإفريقي المذكور سابقا والإهتمام بجنوب شبه الجزيرة العربية لكن ذلك النشاط لم يعمر طويلاً أمام القوى الفارسية الجديدة التي ظهرت في منطقة الشرق الأدنى (٥٥١ - ٣٣١ ق م) ثم ظهور القوى الإغريقية ممثلة في الإسكندر الأكبر وسيطرته على مصر وسوريا ٣٣١ ق م والذي كانت له مشاريع وأطماع في شبه الجزيرة العربية، ولقد كان أيضاً لخلفاء الاسكندر في مصر نفس الاهتمام بمنطقة شبه الجزيرة العربية، فقد اتبع البطالمة أسلوبين في العلاقات مع دويلات جنوب البحر الأحمر أولها الوسائل السلمية الحضارية التي تقوم على توطيد أواصر الصداقة والتفاهم المشترك وخلق مصالح نفعية مشتركة، وهذا ينطبق على سياسة البطالمة مع معان مصران، ومع إمارة العرب الديدانيين في الحجاز وملوك الدولة الحميرية في جنوب شبه الجزيرة العربية، والاسلوب الثاني هو استخدام القوة العسكرية لإرهاب كل من يهدد النفوذ والمصالح البطلمية أو يعرض سفنهم للقرصنة وقد فعلوا ذلك مع الأنباط الذين كان يسيطرون على الجزء الشمالي الشرقي للبحر الأحمر، وكذلك مع السبئيين حلفاء الأنباط.

ولقد كانت فترة بطليموس تمثل بداية حركة كشوفات منظمة وعلمية لسواحل البحر الأحمر، وكانت أول بعثة قادها ساتروس SATURUS عام ٢٢٨ ق م، وكانت مهمته استكشاف الساحل الصومالي النوبي لاختيار مناطق لاقامة الموانئ، ومحطات صيد الأفيال، غير أن أهم المستكشفين في حركة الكشوفات في البحر الأحمر هو أرسطون (ARISTON)، الذى استكشف ساحل شبه الجزيرة العربية من خليج العقبة شمالاً حتى باب المندب جنوباً، ومن الواضح أن هدف فيلادلتوس فى ذلك كان فتح الطريق التجارى بين سبأ فى جنوب شبه الجزيرة العربية العربية وخليج السويس فى الشمال، ووضع قدم مصر فى تجارة التوابل والبحار التى كانت رائجة فى ذلك العصر، وتسيطر عليها سبأ ومعان مصران والأنباط، كما كانت بعثة أرسطون تمهيداً لإرسال الأسطول المصرى للتعرف على بعض الموانئ التجارية الهامة الواقعة على ساحل شبه الجزيرة العربية الغربى، وخاصة معان مصران (ديدان العلا)، وذلك فى عام ٢٧٨ - ٢٧٧ ق م، وقد نجح أرسطون بالفعل فى اكتشاف ساحل البحر الأحمر الشرقى وخليج العقبة بالذات، حيث كان يسيطر عليه الأنباط بفضل مينائهم الشهير إيلانا (AELANA) الواقع على طرف خليج العقبة الجنوبى، كما أن ملاحظاته التى دونها أصبحت مرجعاً للبحارة والجغرافيين السكندريين، خاصة إراتوستينيس (ERATOSTHENES)، الذى استمد منها معلوماته من واقع جنوب شبه الجزيرة وحضاراته فى معين وقتبان وسبأ، وربما اعتمد مؤلف كتاب الطواف حول البحر الأحمر على مذكرات أرسطون فى رحلته، وحرصاً من فيلادلفوس على ربط المدن بالموانئ عن طريق تجارة القوافل والمهمات الاستكشافية، خاصة الربط بين طريق وادى الحمامات والنيل عند قفط، (COPTOS) فإنه اعتمد على الجمال كوسيلة نقل وجلبها

من شبه الجزيرة العربية، وقد بدأ لفظ الجمل يتردد في وثائق العصر البطلمي منذ أن ظهر لأول مرة في الاستعراض الكبير بالاسكندرية ابتهاجا بالانتصارات فيلادلفوس وذلك عام ٢٧٩ - ٢٧٨ ق م.

ولقد كان لإهتمام مصر البطلمية باتصالاتها بشبه الجزيرة العربية وشرق أفريقيا، أن قامت ببناء عدد هام من الموانئ على البحر الأحمر وفي أماكن مختارة بدقة، ولهذا فإنه عند استيلاء الرومان على مصر لم يجدوا ضرورة لإنشاء موانئ جديدة على البحر الأحمر، ولا طرقا جديدة للقوافل عبر الصحراء الشرقية المصرية، لأنهم وجدوا ما حققه البطالمة في ذلك المجال كافيا، وكل ما فعله الرومان هو توسيع هذه الموانئ ومضاعفة الخدمات فيها، وتحسين طرق الصحراء الشرقية واعدادها بالآبار ونقاط الحراسة اللازمة.

لكن قبل مجئ الاسكندر فقد سعى المصريون القدماء إلى فرض نفوذهم على البحر الأحمر، ومن الكيانات السياسية المستقلة التي قامت على سواحل شبه الجزيرة العربية وارتبطت بتأثير النفوذ المصري مثل مملكة معين التي قامت عند مدخل البحر الأحمر قبل القرن الحادى عشر م، والتي نشطت حتى أصبح لها محطات تجارية تابعة لها على طول طريق القوافل عبر الحجاز من أهمها مستوطنة معين مصران (دادان) والحجر (مدائن صالح) وبالرغم من أن قوى أخرى نافست المصريين على تجارة البحر الأحمر مثل سومر وأكاد إلا أنها كانت قوى صغرى مفككة متعادلة، كما أن اهتمامها كان تركزا على الساحل الشرقى لشبه الجزيرة العربية ومن ثم لم تشكل هذه

لكن قبل مجيء الاسكندر فقد سعى المصريون القدماء إلى فرض نفوذهم على البحر الأحمر، ومن الكيانات السياسية المستقلة التي قامت على سواحل شبه الجزيرة العربية وارتبطت بتأثير النفوذ المصري مثل مملكة معين التي قامت عند مدخل البحر الأحمر قبل القرن الحادى عشر م، والتي نشطت حتى أصبح لها محطات تجارية تابعة لها على طول طريق القوافل عبر الحجاز من أهمها مستوطنة معين مصران (دادان) والحجر (مدائن صالح) وبالرغم من أن قوى أخرى نافست المصريين على تجارة البحر الأحمر مثل سومر وأكاد إلا أنها كانت قوى صغرى مفككة متعادية، كما أن اهتمامها كان مرتكزاً على الساحل الشرقى لشبه الجزيرة العربية ومن ثم لم تشكل هذه القوى خطراً على النفوذ المصرى على الساحل الغربى للجزيرة العربية، ولما تقلص النفوذ المصرى فى القرنين الثانى عشر والحادى عشر أصبح هناك فراغ كبير فى البحر الأحمر. مما فتحت المجال واسعاً أمام السياسة التوسعية الآشورية للتوسع بالمنطقة وملء الفراغ، وبالتالي ورثت الامبراطورية الآشورية كل نفوذ مصر فى البحر الأحمر.

ولقد أقام الفراعنة صداقة مع دولة معين كما أقاموا علاقات مع مستوطناتها فى الحجاز وفى دادان (معان مصران: العلا الحالية) ذاتها، وربما كان أيضاً لمصر علاقة وطيدة مع الثموديين وخاصة منذ عصر الدولة الحديثة حيث قام سرجون الثانى (٧٢٢ - ٧٠٥ ق م) بتصفية الوجود المصرى فى شمال الحجاز ممثلاً فى الثموديين بسبب وقوفهم ضد آشور، وبعدهم فعلت بابل نفس الخطوة للقضاء على النفوذ المصرى فى شمال الحجاز، ومحاولة مد نفوذها جنوباً على شبه الجزيرة العربية لصعوبة إخضاع منطقة شبه الجزيرة

العربية خاصة مد النفوذ نحو الجنوب فان الآشوريين لجأوا إلى الاكتفاء بفرض نفوذهم السياسى المباشر فى هذه المنطقة وذلك باسقاط الحكومات التى تتعاون مع مصر، ومن هنا فان الاجتياح الآشورى لمصر والحجاز أثر على العلاقات العربية المصرية، فضلاً عن التغيير السياسى بشبه الجزيرة العربية، حيث يرى بعض المؤرخين أن المكاربة السبئيين أطاحوا بدولة معين الصديقة لمصر، وقد تم ذلك بتأييد من ملوك آشور، الذين كانوا على علاقة وطيدة بملوك سبأ، والذين كانوا يمثلون مصالح آشور فى جنوب الجزيرة العربية، وكذا فالملك الآشورى سرجون الثانى كان على علاقة حسنة مع أحد ملوك سبأ. ومن هنا فإن سقوط معين فى وقت تلى سقوط مصر على أيدي الآشوريين، ثم قيام حكم السبئيين يؤكد اعتقادنا بوجود صداقة بين مصر الفرعونية وملوك معين، تماماً مثلما حدث مع الثموديين فى الحجاز، وبالتالي ارتباط العلاقات المصرية العربية الجنوبية القديمة بتأثير القوى الخارجية، وتنافسها على المنطقة من حين لآخر. وتتضح قمة هذه العلاقات العربية الجنوبية القديمة المصرية فيما أكده عدد من المؤرخين من أنه تكونت جبهة قوية من المصريين والعرب والبابليين، وألحقت ضربة قاضية بالإمبراطورية الآشورية وهزمت جيوشها وسقطت نينوى عام ٦١٢ ق م .

ومنذ فترة الأسرة الصاوية (٦٦٢ ق م - ٥٢٥ ق م) بدأت مصر تسترجع قواها فى محاولة لإسترجاع نشاطها البحرى فى البحر الأحمر، تجلت فى عمليات الكشف الإفريقى المذكور سابقا والإهتمام بجنوب شبه الجزيرة العربية لكن ذلك النشاط لم يعمر طويلا أمام القوى الفارسية الجديدة التى ظهرت فى منطقة الشرق الأدنى (٥٥١ - ٣٣١ ق م) ثم ظهور القوى الإغريقية ممثلة فى الإسكندر الأكبر وسيطرته على مصر وسوريا ٣٣١ ق م والذى كانت له

مشاريع وأطماع في شبه الجزيرة العربية، ولقد كان أيضاً لخلفاء الاسكندر في مصر نفس الاهتمام بمنطقة شبه الجزيرة العربية. فقد اتبع البطالمة أسلوبيين في العلاقات مع دويلات جنوب البحر الأحمر أولاً الوسائل السلمية الحضارية التي تقوم على توطيد أواصر الصداقة والتفاهم المشترك وخلق مصالح نفعية مشتركة، وهذا ينطبق على سياسة البطالمة مع معان مصران، ومع إمارة العرب الديدانيين في الحجاز وملوك الدولة الحميرية في جنوب شبه الجزيرة العربية، والاسلوب الثاني هو استخدام القوة العسكرية لإرهاب كل من يهدد النفوذ والمصالح البطلمية أو يعرض سفنهم للقرصنة وقد فعلوا ذلك مع الأنباط الذين كان يسيطرون على الجزء الشمالي الشرقي للبحر الأحمر. وكذلك مع السبئيين خلفاء الأنباط.

ولقد كانت فترة بطليموس تمثل بداية حركة كشوفات منظمة وعلمية لسواحل البحر الأحمر، وكانت أول بعثة قادها ساتروس SATURUS عام ٢٧٨ ق م، وكانت مهمته استكشاف الساحل الصومالي النوبي لاختيار مناطق لإقامة الموانئ، ومحطات صيد الأفيال، غير أن أهم المستكشفين في حركة الكشوفات في البحر الأحمر هو أرسطون (ARISTON)، الذي استكشف ساحل شبه الجزيرة العربية من خليج العقبة شمالاً حتى باب المندب جنوباً، ومن الواضح أن هدف فيلادلتوس في ذلك كان فتح الطريق التجاري بين سبأ في جنوب شبه الجزيرة العربية العربية وخليج السويس في الشمال، ووضع قدم مصر في تجارة التوابل والبهار التي كانت رائجة في ذلك العصر. وتسيطر عليها سبأ ومعان مصران والأنباط، كما كانت بعثة أرسطون تمهيدا لإرسال الأسطول المصري للتعرف على بعض الموانئ التجارية الهامة الواقعة على ساحل شبه الجزيرة العربية الغربية، وخاصة معان مصران (ديدان العلا).

وذلك فى عام ٢٧٨ - ٢٧٧ ق م، وقد نجح أرسطون بالفعل فى اكتشاف ساحل البحر الأحمر الشرقى وخليج العقبة بالذات، حيث كان يسيطر عليه الأنباط بفضل مينائهم الشهير إيلانا (AELANA) الواقع على طرف خليج العقبة الجنوبى، كما أن ملاحنائه التى دونها أصبحت مرجعا للبحارة والجغرافيين السكندريين، خاصة إراتوستينيس (ERATOSTHENES)، الذى استمد منها معلوماته من واقع جنوب شبه الجزيرة وحضاراته فى معين وقتبان وسبأ، وربما اعتمد مؤلف كتاب الطواف حول البحر الأحمر على مذكرات أرسطون فى رحلته. وحرصا من فيلادلفوس على ربط المدن بالموانىء عن طريق تجارة القوافل والمهمات الاستكشافية، خاصة الربط بين طريق وادى الحمامات والنيل عند قفت، (COPTOS) فإنه اعتمد على الجمال كوسيلة نقل وجلبها من شبه الجزيرة العربية، وقد بدأ لفظ الجمل يتردد فى وثائق العصر البطلمى منذ أن ظهر لأول مرة فى الاستعراض الكبير بالاسكندرية ابتهاجا بالانتصارات فيلادلفوس وذلك عام ٢٧٩ - ٢٧٨ ق م.

ولقد كان لإهتمام مصر البطلمية باتصالاتها بشبه الجزيرة العربية وشرق افريقيا، أن قامت ببناء عدد هام من الموانىء على البحر الأحمر وفى أماكن مختارة بدقة، ولهذا فإنه عند استيلاء الرومان على مصر لم يجدوا ضرورة لإنشاء موانىء جديدة على البحر الأحمر، ولا طرقا جديدة للقوافل عبر الصحراء الشرقية المصرية، لأنهم وجدوا ما حققه البطالمة فى ذلك المجال كافيا، وكل ما فعله الرومان هو توسيع هذه الموانىء ومضاعفة الخدمات فيها. وتحسين طرق الصحراء الشرقية واعدادها بالآبار ونقاط الحراسة اللازمة.

ولقد لوح المصريون بالقوة في علاقاتهم مع العرب لضمان مد نفوذهم نحو منطقة شبه الجزيرة العربية وبالتالي الإقرار بالحقوق والمصالح التجارية المصرية بسواحل البحر الأحمر، ومن هنا جاء العمل العسكى المصرى الصارم ضد الأنباط الذين أزعجتهم حركة إحياء النفوذ المصرى فى البحر الأحمر على يدى بطليموس الثانى، كما أن حركات الكشوفات المكثفة زادت من شكوك الأنباط خاصة بعد أن تفقد المستكشف أرسطون منطقة خليج العقبة وكان الأنباط ينفردون بتجارة البهار ونقله بين سبأ وخليج العقبة منذ القرن الخامس ق م، حيث يوجد ميناؤهم الشهير إيلانا (AELANA).

لقد كانت علاقة الأنباط ببطالمة مصر علاقة غريبة حسب عدد من المؤرخين، حيث أن الأنباط كانوا يحرصون على التجارة مع مصر البطلمية عبر غزة وسيناء، غير أنهم كانوا يخشون الجانب العسكى لدى مصر التى يغضلون بقاءها مملكة ضعيفة، أو فى أحسن الأحوال تحت احتلال من جانب قوى صديقة للانباط، حتى لا تهدد نفوذهم التجارى فى شمال البحر الأحمر والحجاز، لأن مملكة البطالمة القوية تشكل فى نظرهم تهديدا لمصالحهم فى هذه المناطق، ويؤكد أحد المؤرخين تخوفات الأنباط من النفوذ المصرى، أنه يتضح ذلك من تجربتهم مع فراعنة الأسرة السادسة والعشرين، خاصة مع الفرعون نخاو الذى حاول استعادة السيطرة المصرية على البحر الأحمر ولهذا السبب ساعد الأنباط الفرس على إسقاط هذه الأسرة واحتلال مصر وذلك ٥٢٥ ق م، وظلوا يحرسون غزة نيابة عن الفرس، وهم الذين تصدوا للأسكندر المقدونى وقاوموه من قلعتهم الحصينة وذلك فى عام (٣٣٢ - ٣٣١ ق م)^(١)

(١) Flarn (W.W.), "Ptolemy II and Arabia. J.E.A.",

وما أن شعر الأنباط بنوايا بطليموس حتى بدأوا يتعرضون لسفن البطالمة في البحر الأحمر، ويلجأون في ذلك إلى أعمال القرصنة التي كانوا يجيدونها، مما دفع بطليموس فيلادلفوس إلى الدخول معهم في معركة حاسمة فجمع قواته البحرية وسفنه الحديثة التي نجحت في ادخال سفن الانباط في مصيدة بحرية ودمرتها عن آخرها وذلك في عام ٢٧٨ - ٢٧٧ ق م . بل حاول احتلال البتراء، لكن يبدو أنه فشل في ذلك واكتفى بالساحل الشرقي للبحر الميت، فحرمهم من ثروة كبيرة وهي استغلال ثرواته وخاصة القار، ومنذ تلك الهزيمة البحرية بدأ الأنباط ينكمشون اقتصادياً وعسكرياً، ولم يجروا على التجارة في البحر الأحمر لدرجة أن مدينة جرها أو الجرعاء (GERRHA) على الساحل الشرقي للجزيرة، كانت تمدهم بالبهارات والتوابل عن طريق ساحل عمان لكي تنفادى الطريق البحري الذي سيطر عليه الأسطول البطلمي، ولم ينس الأنباط هذه الهزيمة أبداً للبطالمة بل ظلوا يتحينون الفرص لإسقاط هذا الحكم، فتعاونوا مع السلوقين ضد البطالمة، ونظراً لخشية فيلادلفوس من خطر الأنباط حصن ميناء أرسينوى (السويس) بالأصوار، وكون فرقة عسكرية من عرب سيناء لتولى الدفاع عن المنطقة ضد الأنباط، وجعل على قيادة هذه الفرقة عربياً عرف بلقب (قائد العرب) أو (شيخ العرب) (ARABARCHES).

أما السلوقيين فلقد تركوا أمر مقاومة النفوذ المصري بالبحر الأحمر إلى حلفائهم الأنباط حيث شجعوهم على ذلك. في حين يرى مؤرخون آخرون أن فيلادلفوس استخدم دبلوماسية الصداقة والمصالح المشتركة، وإقامة علاقات ودية مع المدن التجارية الهامة على ساحل شبه الجزيرة العربية، حيث كانت له اتصالات تجارية مع مدينة ديدان في شمال الحجاز، فلقد كانت

لموقع معان مصران أهمية تجارية خاصة، إذ كانت مركزاً لشبكة من طرق القوافل التي تربط بين شبه الجزيرة العربية والعراق والشام، وخاصة مصر لشدة قربها منها ولارتباطها التجاري بها.

وتدل الشواهد التاريخية على أن فراعنة مصر الأقدمين كانت تربطهم علاقات تجارية وحضارية قديمة مع العرب الجنوبيين قبل التدخل الآشوري في المنطقة، ويؤكد مؤرخون أن الشواهد تدل أيضاً على أن السبتيين ظلوا على عدائهم لمصر حتى طوال عصر البطالمة، ويفقدان مصر للحكم المعيني الصديق في الجنوب أحيا البطالمة هذه الصداقة مع مستوطناتهم في الشمال، وهي معان مصران التي بدأت تستقبل بنفوذها منذ ضعف حكومة معين في الجنوب وسقوطها، وأصبح يحكمها ملوك يعرفون باسم ملوك ديدان ومن الأدلة الأثرية والتاريخية على إحياء البطالمة لتجارتهم مع المعينين الشماليين العثور على كتابات معينة من عصر البطالمة وذلك في مدينة منف وفي مدينة يوهيميريا (EUCHEMERIA) (قصر البنات بالفيوم).

ويذكر بعض المؤرخين أنه يظهر من نقش منف المؤرخ في السنة الثانية والعشرين من حكم بطليموس الثالث أن جالية معينة كانت موجودة في منف منذ عصر بطليموس فيلادلفوس، والنقش مثبت فوق تابوت مصري عثر في داخله على مومياء التاجر العربي زيد إيل (المذكور)، وكانت أهم البضائع المتاجر بها مع مصر من طرف المعينيين البخور الذي كان يستخدم بكثرة في الشعائر الدينية واللبن داخل المعابد، وكذلك الأعشاب الطبية وخاصة المر أو الحلتيت، الذي كان لازماً لأعمال التحنيط والعقاقير وكان هذا التبادل مقابل تصدير الأقمشة والمصنوعات وخاصة الزجاجية، ولقد عثر على نقوش في

جزيرة ديلوس ذات الأهمية الخاصة للعلاقات بين مصر البطلمية والحجاز. ويلاحظ بعض المؤرخين أن اللحيانيين كانوا يمقتون الأنباط الذين نافسوهم في تجارتهم ويهددون استقلالهم، ويبدو أن اندماجا تم في القرن الثالث ق م، وبين المعينيين في الشمال واللحيانيين ويرى بعض الباحثين أن مملكة لحيان قامت بتشجيع من البطالمة وبتأييدهم، وأن ذلك تم في عصر بطليموس الثاني كجزء من مخططة الإستراتيجية لمحاربة الأنباط والسيطرة على البحر الأحمر، ولقد بقيت هذه الصداقة المصرية للحيانية قوية طوال بقاء البطالمة أقوياء.

ويؤكد بعض الباحثين أن هذه العلاقة لم تتوقف عند المصالح التجارية فقط بل تعدتها إلى الجانب الحضارى والفكرى، فقد تأثر ملوك لحيان بالثقافة المصرية الهلستية، فقد حمل أربعة أو خمسة من الملوك اللحيانيين لقب (طولماي) (TULMAI) الذى هو بكل تأكيد التحريف العربى للفظ بطليموس، اللفظ الذى حملة ملوك الإسكندرية، وأحيانا كتب هذا الاسم بطرق مختلفة فى الخط المسند مثل (بتحمى) (PETAHMY) وأحيانا أخرى فى شكل (تاخمى) (TACHMI)، ويؤكد هؤلاء الباحثين على أن الألقاب التى حملها اللحيانيون تشابه الألقاب التى حملها البطالمة، فلقد (يطوع) (أى) (المتقد) و (الملخص) هو ترجمة للفظ سوتير (SOTER) الذى حملة بطليموس الأول، وهم يعتقدون أن هذا من باب المصادفة، لأنه ترددت أسماء بعض القبائل اللحيانية المعينية، وبعض شخصياتها البارزة فى الوثائق المصرية من العصر البطلمى بل إن اسم البخور المعينى أخذ يكسب شهرة فى أسواق الإسكندرية، وكان هذا البخور كثيره من سائر أنواع البضائع العربية يأتى عن طريق موالىء الدولة المعينية اللحيانية إلى ميناء أفروديتيس،

والذى يقع على بعد ٥٠ كيلو متر جنوب المدخل إلى خليج السويس بالقرب من بير أبو شعر القبلى التى تقع على بعد أربعة كيلو ميترات، ولقد أسس بطليموس هذا الميناء لكى يكون قاعدة بحرية لعملياته ضد قراصنة البحر ولنشر نفوذه فيه.

وكذلك فإن اسم الخيول المعينية الحيانية بدأ اسمها يتردد فى وثائق البردى المصرية من العصر البطلمى ويلاحظ بعض الدارسين أن هناك فراغ فى الدراسات الأثرية، خاصة من حيث المقارنات فى مختلف الفنون، حيث يؤكد عدد من الباحثين أن العلاقة وثيقة بين المنطقتين من الناحية الحضارية، ولا شك أن ذلك يتضح عن طريق دراسات علمية مكثفة وجادة، كذلك وجدت عملة مدينة الإسكندرية فى أجزاء كثيرة من بلدان البحر الأحمر وخاصة فى اليمن، وفيما بعد قلد ملوك حمير أصدقاء البطالمة التترادراخما (TETRA DRACHMA) الإسكندرية واتخذها نموذجا لعملتهم، ويعود تاريخ الدراخما التى عثر عليها فى اليمن إلى عصر الملك أب يشع الذى وجد اسمه مكتوبا بالخط المسند، ويرجع تاريخ هذه العملة إلى القرن الثالث أو الثانى ق م.

وسجل أيضا أن السبئيين كانوا يلعبون دورا مشابها للدور الذى لعبه الأنباط من مزاحمة النفوذ المصرى بالمنطقة، وتهديد مصالح مصر التجارية فى البحر الأحمر، وذلك منذ أن أعانهم الآشوريون على التغلب على ملوك معين، أصدقاء المصريين، حيث إزداد نفوذ السبئيين التارى فى البحر الأحمر بعد تدهور وسقوط حكم مصر القديم وبدأ إحتلال الفرس لمصر، وهنا يتسائل

بعض الباحثين حول هل أقام البطالمة مستوطنات على ساحل شبه الجزيرة العربية كما فعلوا في شرق إفريقيا؟

يتضح من خلال عدة دراسات جادة أن المصريين لم يحاولوا إنشاء مستوطنات لهم على ساحل البحر الأحمر الشرقي، وفي بلاد العرب قبل عصر بطليموس الذي بدأ فيه البطالمة في الإنتشار والتوسع من نفوذه عن طريق إقامة المدن والحوضر والموانئ في المناطق الإستراتيجية المهمة، وإطلاق أسمائهم أو أسماء أفراد البيت الحاكم عليها.

فإذا كان السلوقيون قد ركزوا إهتمامهم في بناء المدن والمستوطنات حول الخليج العربي وعلى ضفاف الفرات وعلى سواحل شبه الجزيرة العربية الشرقية، حيث منطقة الثراء التجارى، وكذلك على الساحل السوري وشمال بلاد الشام عند طرق التجارة والقوافل، فإن البطالمة ركزوا إهتمامهم على سواحل البحر الأحمر، والملاحظ أن كلتا الدولتين حاولتا صبغ مناطق نفوذه بالحضارة الهلنستية.

ولا يزال علماء الآثار والتاريخ يبحثون عن موقع ميناء أمبيلونى البطلمى فهناك من يرى أنها كانت تقع بالقرب من ينبع الحالى فى شمال الحجاز، بينما يرى آخرون أنها كانت بالقرب من ميناء جدة الحالى وبالقرب من مدخل وادى حمد، حيث يسهل الوصول عن طريق البر إلى ديدان وبحرا إلى ميوس هورموس قاعدة البطالمة على الساحل الغربى للبحر الأحمر، ويلاحظ كذلك حرص فيلادلفيوس على نشر نفوذه على ساحل الحجاز القريب من ديدان من أجل تأمين مينائه الجديد، وتأمين حركة الملاحة بين هذا الميناء

الجديد أمبيلونى وبين ميناء ميوس هورموس (MYOS HORMOS)^(١)، وبينه وبين ديدان، إضافة إلى أن البطالمة أقاموا ميناء آخر قرب العقبة، أسموه (بيرنيكى) (BERENIKE). وذلك للحد من نشاط ميناء إيلانا (ALEANA) التابع للأباط.

ونخلص إلى أن بطليموس الثانى أكثر البطالمة إهتماماً ببلاد العرب، وأنه سعى لكسب صداقة ملوكها بالوسائل السلمية والدبلوماسية، والتبادل الثقافى والاقتصادى. وذلك لتمتين علاقتهم بمصر، ويلاحظ أنه نتيجة لهذه السياسة الحكيمة التى جمعت بين الدهاء السياسى والقوة، نجح بطليموس الثانى فى تحويل جزء من تجارة البهار والبخور فى البحر الأحمر إلى ميناء أمبيلونى الجديد لصالح حليفة البطالمة. الدولة الميعينية اللحيانية التى ربطها بحربها بخط ملاحى دائم الحركة، يربط بالموانئ المصرية على الساحل المصرى للبحر الأحمر، مما ألحق ضربة اقتصادية بالسبئيين وحلفائهم الأباط.

من هنا تتضح درجة حرص مصر على ربط الحجاز بسياستها فى المنطقة العربية، وبالتالى نجاح السياسة البطلمية والتى بلغت فى عهد بطليموس الثالث (٢٤٦ - ٢٢١ ق م . والذى يلقبه المؤرخون بـ (نابليون مصر)، حيث يذكر بعض المؤرخين أن حلفاءه من الميعينيين ساعدوه فى إجتياحه لسوريا حتى الفرات وأن هناك وثيقة هامة تثبت اشتراك الدولة الميعينية واللحيانية مع البطالمة ضد السلوقيين، وذلك فى موقعه رفح عام

(١) كان هذا الميناء يعرف فى ذلك الوقت باسم أفروديت، ولم يتخذ الاسم إلا فى عصر الرومان. ويعكس هذا التغير حرص الرومان على محو كل شىء يذكرهم بحكم البطالمة لمصر. ومن بين ذلك تغير أسماء الموانئ.

٢١٢ ق م، وهذه الوثيقة تعود إلى حكم الملك أب يدع يثع ملك معين مصران^(١) غير أن انتصار بطليموس الرابع في رفح عام ٢١٢ ق م، كان نقطة تحول في تاريخ حكم مصر البطلمية، فمن جهة أخذت أوضاعهم الداخلية تتزعزع نتيجة المعارضة، ومن جهة أخرى نتيجة ضغط السلوقيين من الخارج على البطالمة خلال القرن الثاني ق م وخاصة بعد أن انفصلت فارس والعراق عن الدولة السلوقية وقيام دولة الفرثيين، حيث أخذت هذه الدولة تضغط على الدولة السلوقية من الشرق، مما أدى إلى ضعف سيطرة الدولة السلوقية على المناطق الشرقية التجارية، من هنا بدأ إهتمامهم يتركز على المسالك الغربية، الحجاز، سيناء، مما جعلهم يصطدمون بالبطالمة، في حين كانت المهمة من جانب السلوقيين يتولاها حلفاؤهم الأنباط الذين دافعوا ضد تواجد النفوذ البطلمي بالمنطقة بدعم من دولة السلوقيين عندما كانت هذه الأخيرة مشغلة بالخليج، ويقول بعض الباحثين أن اهتمام السلوقيين بالمسالك الغربية أدى إلى وقوع خلاف بينهم وبين حلفائهم الأنباط فيما بعد، ومن هنا اتجه الأنباط إلى التعاون مع دولة الرومان خلال القرن الأول ق م، وبغرونها بالوصول إلى الشرق الأدنى حتى تقضى على الدولتين المتصارعتين السلوقية والبطلمية.

وبحلول القرن الثاني قبل الميلاد تضعف علاقة مصر بشبه الجزيرة العربية أمام ظهور قوة السلوقيين، حيث تفقد مصر جوف سوريا بعد معركة بانيون (PANEINON) قرب الأردن عام ٢٠٠ ق م وضاعت من أيدي البطالمة الطريق البري الذي كان يربط الدلتا بالحجاز، كما أن مينائهم عند خليج العقبة بيرنيكي، بالقرب من إيلات نافسه ميناء الأنباط النشط إلانا (إيلات

(١) PERENNE (J), " Paleographie des Inscriptions Sud Arabe ".

الحالي). وبانتصار السلوقيين وحلفائهم من العرب الجنوبيين تأثرت موانئ مصر على البحر الأحمر، حيث تحولت قارة الهند والجنوب العربي إلى الطريق المحاذي للشاطئ البحر الأحمر الشرقي الممتد من ميناء لوبيكى كومي النبطي، ومنه إلى البتراء ومنها إلى الساحل السوري لهذا ركزت مصر على البحر الأحمر رغم ضعفها، وتزايد النفوذ الروماني تدريجياً في مصر بقصد احتلالها ومحاولة كشف شواطئ البحر الأحمر وبلدانه الجنوبية إضافة إلى فقدان البطالمة الروح العسكرية التوسعية القديمة حيث تحولوا منذ بطليموس الخامس إلى التجارة فقط في البحر الأحمر خاصة. وإرسال البعثات الاستكشافية نحو شطوطه الجنوبية حيث ازدهرت العلاقات التجارية مع بلدان جنوب البحر الأحمر العربية، إذ بدأ تجار الاسكندرية الوصول إلى ساحل حضرموت الفنى باللاذن والبخور^(١).

ويلاحظ أن البطالمة في عهدهم المتأخر (١٤٦ - ١٠٠ ق م) قد بدأوا في إرسال البعثات الاستكشافية بغية السيطرة على التجارة والمتاجر العابرة للمحيط الهندي والبحر الأحمر، حيث أرسل بطليموس بعثة بقيادة يودوكسوس (EUDOXOS) حوالي ١٤٦ ق م في مهمة لاستكشاف الطريق الملاحي عبر عدن إلى شبه القارة الهندية لكسر احتكار السبئين لهذه الطريق. خاصة وأن دولة سبا كانت أخذت في التدهور والضعف خلال هذه الفترة. حيث وصل هذا البحار إلى الهند بمساعدة بحار هندي، وحسب روايات إسترابون نقلا عن بوسيدونيوس (POSEIDONIUS) فإن قائد البعثة (يودوكسوس) قد عاد من الهند وسفينته محملة بالتوابل والعطور والأحجار

(١) Farn and Griffith, " Hellenistic Civilization ".

الكريمة، فسلبه بطليموس هذه الهدايا ونفس الشيء فعلته معه أرملته الثالثة بعد رحلته الموالية، فكان في رحلته الثالثة أن حاول تفادي المرور في البحر الأحمر، لكنه هلك أثناء هذه الرحلة وحرماناً من مذكراته وملاحظاته التي دونها عن شعوب بلدان البحر الأحمر^(١).

لكن بعد سقوط دولة سبأ عام ١١٥ ق م والتي كانت معادية للبطالمة، حل محلها ملوك حمير الذين تلقبوا باسم ملوك حمير وذى ريدان، حيث أنهوا سيطرة حضرموت على البحر الأحمر (جنوبه)، ويرى بعض المؤرخين أن ملوك حمير كانوا أكثر ميلاً للتعامل مع مصر البطلمية، وهذا ما منحهم فرصة للتوسع جنوباً بعد أن زالت العوائق أيام النفوذ البطلمي، ويفسر أجد الباحثين عودة النفوذ المصري، أن الإطاحة بمملكة سبأ على أيدي حمير، والإطاحة المماثلة بملك حبشت في حضرموت يعكس عودة النفوذ البطلمي المصري إلى جنوب البحر الأحمر بعد فترة انحسار طويلة نتيجة الهزبة التي تلقاها البطالمة في شمال الحجاز على أيدي الأنباط المدعومين من قبل السلوقيين. ولا يستبعد نفس الباحث أن يكون هذا التغيير السياسى قد تم بتدخل البطالمة، معتمداً في ذلك على صداقة حميمة بين ملوك حمير وملوك البطالمة، وأيضاً من نتائج هذا التدخل البطلمي هجرة حبشت بعد زوال ملكها إلى بلاد أكسوم (الحبشة)، وربما ما يؤكد ذلك أيضاً هو أن الرومان عند قضائهم على البطالمة في مصر سارعوا بإرسال حملة لاسقاط حكم الحميريين.

(٢) Cary (m) and Warmington (c.h.). " The Ancient Explores ".

وفي القرن الأخير قبل الميلادى إزداد النفوذ الرومانى فى مصر نتيجة ضعف الحكم البطلمى، وإفلاس سياسته الاقتصادية وتزايد المقاومة الوطنية بقيادة الكهنة، وبدأت تجرد مصر من مملكتها الخارجية، ففى عام ٩٦ ق م فقدت برقة، وفى عام ٥٨ ق م فقدت قبرص كقاعدة بحرية، وبعد سقوط الدولة السلوقية على أيدي الرومان وضم سوريا إلى الامبراطورية عام ٦٤ ق م اختلت موازين القوى بالبحر الأحمر، حيث انتشرت القرصنة به وعاد الأنباط مهاجمتهم للسفن المصرية التي لم تعد قادرة على الذهاب إلى فى حراسة السفن العربية وبالتالي لم تتجاوز حدود البحر الأحمر، حيث أصبحت الرحلات المصرية محفوفة بالمخاطر، وكان لهذا الوضع أن أنحسر النفوذ المصرى فى شمال غرب شبه الجزيرة وساحل البحر الأحمر، وهذا فى الوقت الذى إزداد فيه نفوذ الأنباط منذ عهد ملكهم أريطاس (الحارث) الثالث، وسيطروا سيطرة إقتصادية تامة على المدن العربية الهامة، مثل تيماء والحجر (مدائن صالح) اللتين لا تبعدان كثيرا عن خليفة مصر قديما وهى ديدان، وأصبحت الحجر وميناؤها إجرا (الوجه الحالى) قاعدة للإنطلاق، التوسعى للإنباط، الذين لا يستبعد تحريضهم للرومان على فتح مصر بغية الإفراد بالتجارة فى البحر الأحمر، ومن أجل ذلك حرضوا الرومان لإسقاط حكم الحميريين فى اليمن بل وشاركوا فى الحملة الرومانية الفاشلة عام ٢٤ ق م^(١).

ولما بدأت الامبراطورية الرومانية منذ أواخر القرن الثالث الميلادى تعاني من الفوضى السياسية والتدهور الاقتصادى والضعف العسكرى، بسبب هجوم البرابرة عليها، خفت قبضتها على المشرق العربى، مما ساعد على عودة

(١) سيد أحمد على الناصرى. " الروم والمشرق العربى

الحياة إلى الدولة الحميرية منذ عام ٣٠٠ م على يد شمريهرعش ٢٨٠-٣٠٠ م. وهو الذى ذكره القرآن الكريم باسم التبع الأكبر، فقد نجح هذا الملك فى القضاء على التفكك والانقسام فى الجنوب العربى واعادة توحيدته تحت تاجه.

لكنه لم تمضى ثلاثون سنة على موت شمريهرعش حتى بدأت الدولة الحميرية فى الانهيار بسبب ضعف من خلفوه على العرش كذلك ضربة الرومان الاقتصادية للتجارة جنوب شبه الجزيرة قضت على أحلام تحقيق دولة قوية مثلما كانت دويلاتها القديمة، كذلك تبنى الامبراطور قسطنطين المسيحية ونقل العاصمة من روما إلى القسطنطينية، حيث بدأت ملامح امبراطورية الروم الشرقية المسيحية تتبلور فى هذا الجزء من آسيا الصغرى وبدأت فى المطالبة بإرث الامبراطورية الرومانية ونفوذها التجارى بطريقة جديدة، وهى استخدام نشر المسيحية على المذهب الأريوسى، ولهذا كان من بين بنود الاتفاق المبرم بين جاستينيان والأحباش هو قيام الحبشة بنشر المذهب الأريوسى فى جنوب الجزيرة، ووقف موجة التهويد واسقاط الدولة الحميرية، وتطويق الدولة الفارسية فى جنوب البحر الأحمر، وهذا الاتفاق جاء بعد فشل جستين الأول (٥١٨ - ٥٢٢ م) فى إقناع التبع ملك حمير لكى يدخل فى حلف الروم لمنع وصول الفرس إلى المنطقة، وكان لحادثة الأخدود - ٥٢٣ م - أن أحال جستين الأمر على الأحباش الذين غزوا اليمن، وأسقطوا الدولة الحميرية، غير أن انهيار سد مأرب غير كثيرا من الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسكانية بالمنطقة، زيادة على الوجود الحبشى حيث انتقلت الحضارة العربية القديمة من الجنوب إلى مدن الحجاز خاصة مكة والطائف، حيث أصبح الحجاز يمثل ثقل تجارى كبير، وفى هذا الوقت أخذ نفوذ الروم ينحسر جنوبا أمام الفرس.

إضافة إلى ظهور الدعوة الإسلامية علمى يد محمد صلى الله عليه وسلم فى الحجاز عام ٦١٤ م حيث بدأ فى إقامة أركان الدولة العربية الإسلامية بعد هجرته من مكة إلى المدينة ٦٢٢ م. حيث حدث صدام أول مع الروم ٦٢٩ م وذلك فى موقع مؤتة، وفى سنة ٦٣٠ فتح الرسول الكريم (صلعم) مكة وهكذا بدأ نجم إمبراطورية الروم يدبل خاصة بعد فتح عمر بن العاص لمصر سنة ٦٤١ م.

ومن هنا يتضح وأن العلاقات المصرية العربية وخاصة مع جنوب شبه الجزيرة إتخذت أشكالاً متعددة وفقاً للظروف الدولية من جهة وحسب مقتضيات المصالح من جهة أخرى، وإن سعى كل طرف فى ظروفه المناسبة إلى محاولة فرض سيطرته على الآخر أو أن يتخذ شكلاً من أشكال الوصاية، والاحتكار فى خلال هذه الفترة من العلاقات السياسية الاقتصادية والثقافية، فأن العامل البشرى والحضارى كان يلعب دوره فى قولبة التركيبة البشرية مستقبلاً، بحيث انصهرت المجموعات البشرية بالمنطقتين فى المحيط السامى وأضفى عليها الاسلام بعد جديداً.

الخاتمة

نود في هذه الخاتمة أن نستعرض جملة من الملاحظات حول تاريخ جنوب شبه الجزيرة العربية وأفريقيا الشرقية نرى أنها جد ضرورية:

♦ إن المتأمل لمصادر تاريخ جنوب شبه الجزيرة العربية والشرق الإفريقي يلاحظ احتكار المستشرقين لوقت طويل كتابة تاريخ المنطقة موضع الدراسة، رغم أخطائهم الكبيرة حيث أنهم - أغلبهم - كتبوا وهم متأثرين بشدة بحرفية نصوص التوراة، خاصة فيما يتصل بتاريخ العرب والأفارقة القدماء لهذا حولوا الكثير من الأحداث والحقائق الواضحة لكي يتماشى ذلك التفسير مع ماورد في نصوص التوراة، بالمقابل فإنهم قلما يرجعون إلى القرآن الكريم الذي هو أدق المصادر وأكثرها معرفة بأحوال العرب في جاهليتهم، ناهيك عن أنه مصدر رباني لم يتعرض لأقلام البشر، وصدق الله العظيم في قوله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)، وكذلك فإن هؤلاء المستشرقين قلما يرجعون إلى كتب التراث العربي، أو إلى كنوز الشعر الجاهلي، لاستخراج معلومات تساعد على استكشاف تاريخ العرب القديم، ويفضلون عليها المصادر الإغريقية والرومانية، والتي رغم أهميتها المعترف بها، إلا أنها هي الأخرى وكما ثبت من الدراسات الحديثة أنها لم تفهم تراث الشرق الذي كان في نظرها غريباً وأسطورياً، وهذا مايتضح من كتابات هيرودوت عن شبه جزيرة العرب، أو كتب لأهداف سياسية كما هو الحال في النصوص الرومانية، ومن هنا يجب ألا نأخذها أخذ الإيمان الكامل بصحتها، وبناءً على ذلك نرجح وجهة النظر القائلة بوضع منهج

عربي لدراسة تاريخ العرب قبل الإسلامى على أساس إعادة ترتيب المصادر التى يجب أن يكون فى مقدمتها القرآن الكريم والحديث الشريف يليهما النقوش العربية القديمة، ومكتشفات الآثار ثم يلى ذلك التوراة ونصوص الكتاب الإغريق والرومان. والهدف من ذلك تحرير تاريخ المنطقة من احتكار مفسرى التوراة، ومن هيمنة العقل الأوروبى الذى يجب أن ننظر إليه بمثل هذه القداسة لأنه أيضا يخطئ ويصيب الفهم.

٤ صعوبة البحث فى تاريخ جنوب شبه الجزيرة القديم وذلك نظراً لنوعية وطبيعة المصادر، من ذلك عدم إكتشاف كل النقوش الخاصة بهذه الفترة. كذلك عدم ترجمة النقوش الموجودة بالرغم من جهود أساتذة جامعة صنعاء ومركز البحوث والدراسات اليمنى، وعلى رأسهم الدكتور مطهر عنى الأريانى ويوسف محمد عبدالله، عبدالله حسن الشيبه. ولهذا لا زالت الكثير من النقوش تنتظر من يدرسها ويشرحها، كذلك قلة النقوش التاريخية فاطول نقش فى كتاب الدكتور أحمد فخرى عن رحلاته الأثرية إلى مأرب المنشور بالقاهرة عام ١٩٥١م، هذا النقش يتعلق بأخبار سبأ وحروب ملوكها (كرب إيل وتر) فمعظم النقوش لأشياء شخصية وعدد منها خاص بإصلاح السدود والرى وتنظيم الضرائب والزراعة وغيرها، ومايزيد من صعوبة معرفة الأخبار وترتيبها هو تجاهل هذه النقوش لذكر التواريخ التى كتبت فيها. حيث وجد المؤرخون صعوبة كبيرة فى تحديد بدايات الدول اليمنية ونهايتها، وكذا ترتيب سبأ ملوكها إضافة إلى ندرة التنقيب عن الآثار فى المنطقة.

• الملاحظ أن تاريخ افريقيا القديم لم يحضى باهتمام من قبل المؤرخين، الاهتمام الذى يليق بقارة من ثلاث قارات أقدم ما عرف العالم القديم، فقد غطى تاريخ الاستعمار الأوروبى الحديث على تاريخها القديم، لدرجة تعطى الايحاء بأن تاريخ هذه القارة يبدأ مع وصول هذا الاستعمار، ولعل سبب ذلك هو ارتباط تاريخ القارة الحضارى مع تاريخ العرب القديم، ومن هنا فتاريخ الشرق الافريقى لم يجذب إليه المؤرخين والباحثين إلا فى أواخر القرن السابع عشر الميلادى، حيث ظهرت دراسات بشكل منظم فى أوروبا للتاريخ الحبشى، أما المصادر العربية فإنها فقيرة جداً فيما يخص التاريخ الحبشى، إنها بعيدة عن أن تقربنا إلى الحقيقة التاريخية عن غيرها من المصادر التى نملكها، إضافة إلى توقف التنقيبات الأثرية إن لم نقل إنعدامها (وذلك نظراً للظروف التى تمر بها المنطقة) وبالتالى ليست بحوزة الباحثين نقوش جديدة والتى بإمكانها دفع حركة كتابة التاريخ الحبشى أكثر نحو الأمام.

لقد عرف عرب جنوب شبه الجزيرة العربية طريقهم إلى شرق افريقيا منذ الألف الأول ق م، إذ لم يكن البحر الأحمر عائقاً لاتصال جنوب شبه الجزيرة بسواحل شرق افريقيا، إذ لا يزيد اتساع هذا البحر على المائة والعشرين ميلاً عند السودان، ويصبح ضيقاً جداً عند باب المندب، فضلاً عن وجود جزيرة سوقطرة التى لعبت دور الجسر بين جنوب الجزيرة وسواحل افريقيا الشرقية، مما سهل على السلالات العربية أن تعبر البحر الأحمر نحو الشرق الافريقى، بل ونحو داخل القارة الافريقية طلباً للرزق والتجارة. وكانت أقدم القبائل العربية هجرة إلى إفريقيا الشرقية هى قبيلة (حبشت) والتى منها أخذت الحبشة إسمها العربى وإسمها الأوروبى (ABYSSINIA)

ويرجح أن هجرة هذه القبيلة تمت حوالى عام ١٠٠٠ ق م على عهد الدولة المعنية والتي كانت على علاقة ممتازة بمصر الفرعونية، كذلك فإن قبيلة المعاير (MAPHARETES) التى كانت تسكن جنوب تهاما يذكرها صاحب كتاب الطواف حول البحر الأحمر أنها كانت تحكم الساحل الإفريقى بنوع من الحق القديم، أى أن نفوذها كان قديما بالمنطقة. وهذا يؤكد ازدياد النفوذ العربى بعد سقوط دولة البطالمة، على الساحل الإفريقى الشرقى، وخلال القرنين السابقين للإسلام عبر عدد من الحميريين مضيق باب المندب، فحو الساحل الشرقى الإفريقى، بل حتى مقديشو التى كانت تعرف قديما باسم (حمر) نسبة إلى قبائل حمير، كذلك تعد قبيلة بلى القحطانية أكثر انتشارا بعد إنهيار سد مأرب، كذلك قبيلة سهرت (سحرت) التى كانت تسكن على رأس مضيق باب المندب فى منطقة (مخا الحالية) إضافة إلى قبيلة الأجاغز التى تعد من أقدم القبائل العربية الجنوبية حيث كان موطنها على الساحل بين صنعاء وعدن، وفرضت على الأحباش اللغة الجعزية، من هنا يتبين أن هجرات عرب الجنوب إلى شرق إفريقيا كانت منذ القديم إذ كانوا يجدون فى هذه السواحل ملجأ يفرون إليه، سواء بسبب الحياة القاسية أو الصراع القبلى أو بسبب الكوارث الطبيعية كالجفاف وتهدم سد مأرب أو بسبب الصراع الدينى.

يلاحظ التداخل الكبير بين الوجود المصرى فى الشرق الإفريقى مع الوجود العرب، فى الوقت الذى بدأت فيه الممالك الجنوبية تنشط سياسيا وتزدهر تجاريا، كانت أيام الامبراطورية المصرية (الفرعونية) قد ولت وانهارت البحرية المصرية فى البحر الأحمر، مما أطلق العنان لعرب جنوب شبه الجزيرة لجنى الثمار التى زرعاها المصريون فى شرق إفريقيا، والتوسع

فيها، وملىء الفراغ الناتج عن غياب القوة المصرية فى البحر الأحمر وبالتالى ورث عرب الجنوب رسالة مصر فى تطوير شرق إفريقيا ثقافة وعنصراً، وأقاموا نظاماً تجارياً وتنظيماً تعاملياً فقد نجح السبئيون فى تكوين أسطول بحرى تجارى، وتفوقوا فى فن الملاحة، وازدهرت موانئهم، وعرف السبئيون مواقيت واتجاهات الرياح الموسمية، واستفادوا من ذلك فى الإبحار بسفنتهم على طول سواحل شرق إفريقيا، وجزر البحر الأحمر، ووصلوا حتى رأس ديلجادو وزنبار، لكنهم إهتموا بمنطقة الساحل الإفريقى المواجهة لبلادهم وكان من عوامل تفوقهم على المصريين فى الانتشار فى شرق إفريقيا، تشابه الظروف المناخية والبيئية بين السواحل الجنوبية العربية، وسواحل إفريقيا الشرقية، وهى ميزة جعلت توسع عرب الجنوب فى إفريقيا أكثر نجاحاً وأكثر تفاعلاً وثباتاً من التوسع المصرى.

إنتهى بحمر (الله وحسن عونه

المراجع

المراجع العربية

١. أحمد فخري: "اليمن ماضيها وحاضرها"، المكتبة اليمنية، ط ٢ - ١٩٨٨.
٢. أودولف إيرمان، هرمان رنكة: "مصر والحياة المصرية القديمة" (ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال)، مصر، بدون تاريخ.
٣. سبيتينو موسكاتي: "الحضارات السامية القديمة"، (ترجمة يعقوب بكر)، دار الرقي بيروت - ١٩٥٧.
٤. جواد علي: "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٢ - ١٩٧٦.
٥. جورج فضل حوراني: "العرب والملاحة في المحيط الهندي"، (ترجمة يعقوب بكر) - بدون تاريخ.
٦. دتليف نلسن: "التاريخ العربي القديم"، (ترجمة واستكمال فؤاد حسنين)، دار النهضة مصر - ١٩٥٨.
٧. هوبير ديشان: "الديانات في إفريقيا السوداء"، (ترجمة أحمد صادق حمدي)، دار الألف كتاب - ١٩٥٦.
٨. حسن صالح شهاب: "أضواء على تاريخ اليمن البحري"، دار العودة بيروت - ١٩٨١.

٩. يوسف محمد عبدالله: "أوراق في تاريخ اليمن وآثاره"، مطبعة وزارة الاعلام والثقافة صنعاء - ١٩٨٥.
١٠. كمال مراد: "في بلاد النجاشي"، دار المعارف مصر - ١٩٤٩.
١١. لطفى عبدالوهاب يحيى: "العرب في العصور القديمة"، دار المعرفة الاسكندرية - ١٩٨٦.
١٢. محمد أبوالمحسن عصفور: "معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم"، دار النهضة العربية - ١٩٨١.
١٣. محمد بيومى مهران: "تاريخ العرب القديم"، دار المعرفة الجامعية الاسكندرية - ١٩٨١.
١٤. محمد يحيى الحداد: "تاريخ اليمن السياسى"، ج ١، منشورات المدينة، بيروت - ١٩٨٦.
١٥. مصطفى العبادى: "الامبارطورية الرومانية" دار النهضة العربية - ١٩٨١.
١٦. سيد أحمد على الناصرى: "تاريخ الامبراطورية الرومانية السياسى الاجتماعى"، دار النهضة العربية مصر، القاهرة - ١٩٧٨.
١٧. سيد أحمد على الناصرى: "البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة"، (الرومان البحر الأحمر)، مطبعة الجبلأوى، مصر - ١٩٧٩.
١٨. سيد أحمد على الناصرى: "المصريون والعرب وعلاقتهم بإفريقيا في العصور القديمة"، دار النهضة العربية، مصر - ١٩٩٠.

١٩. سيد أحمد علي الناصري: " الروم والمشرق العربي "، مطبعة جامعة القاهرة - ١٩٩٣.

٢٠. سير آلن جاردنر: " مصر الفراعنة "، (ترجمة مختايل إبراهيم وعبد المنعم أبو بكر)، الهيئة المصرية للكتاب - ١٩٧٣.

٢١. عبدالله حسن الشيبه: " اليمن القديم وشرق افريقيا "، صنعاء - ١٩٩٠.

٢٢. إبن خلدون: " تاريخ ابن خلدون "، ج ٢، بيروت - ١٩٧١.

٢٣. أمين مدني: " التاريخ العربي وبدايته "، دار تهاما للنشر، المملكة السعودية - ١٩٨١.

٢٤. أرنولد توينبي: " تاريخ البشرية "، ج ٢، (ترجمة نيقولا زيادة)، المطبعة الأهلية - ١٩٨١.

٢٥. برستيد: " انتصار الحضارة "، (ترجمة أحمد فخري)، القاهرة - ١٩٥٥.

٢٦. جلال يحيى ومحمد نظير مهنا: " مشكلات الأقليات في الوطن العربي "، دار المعارف - ١٩٨٠.

٢٧. حسن الحاج حسن: " حضارة العرب في عصر الجاهلية "، المؤسسة الجامعية لبنان - ١٩٨٤.

٢٨. محمد السيد غلاب: " تطور الجنس البشري "، القاهرة - ١٩٦٣.

٢٩. محمد السيد غلاب: "الجغرافية - عصر ما قبل التاريخ وفجره"، القاهرة - ١٩٨٦.

٣٠. محمد عبدالله النقيرة: "انتشار الاسلام فى شرق افريقيا ومناهضة الغرب له"، دار المريخ، العربية السعودية - ١٩٨٢.

٣١. مصطفى أبو ضيف احمد: "دراسات فى تاريخ العرب"، مكتبة شباب الجامعة، الإسكندرية - ١٩٨٣.

٣٢. سيد عبدالعزيز سالم: "دراسات فى تاريخ العرب قبل الإسلام"، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية - ١٩٨١.

٣٣. سعد زغلول عبدالحميد: "تاريخ العرب قبل الاسلام"، دار النهضة العربية بيروت - ١٩٧٦.

٣٤. عبدالفتاح محمد وهيب: "الجغرافية التاريخية بين النظرية والتطبيق دار النهضة العربية، بيروت - ١٩٨٠.

٣٥. توفيق برو: "التاريخ العربى القديم"، دار الفكر دمشق - ١٩٨٤

المراجع الأجنبية

١. ABBA TEKLE, HAIMANOT: "Histoire de l'Empire d'Ethiopie et la Mission Catholique au XIX" (Manuscrit), Trad: France-lille, ١٩١٤.
٢. ABBADIE (ANTOINED): "Catalogue Raisonne des Manuscrits Ethiopiens", Paris - ١٨٥٩.
٣. ARKELL (A.J.): " A history of the Sudan from the Earliest Times to A.D. ١٨٢١", London - ١٩٥٥.
٤. AHMED FAKHRY: "Archeological Journeys to Yemien", Vol.I, Cairo - ١٩٥٢.
٥. AZAIS (R.P.), VHAMBORD (R): "Cinq annees de Recherches Archeologiaue on ethiopie", ١٩٣١.
٦. BENT (J.T): " Sacred City of the Ethiopians", London - ١٨٢٣.
٧. BASIL DAVIDSON: "L'Afrique Ancienne", TII, Collection Maspero, Paris - ١٩٢٨.
٨. BALL (J): "Egypt in the Classical Geographers", Cairo - ١٩٤٢.
٩. COUBLEAUX (J.B.): "Histoire politique et religieuse d'abyssinie". ed geuthner, paris - ١٩٢٠.

١٠. DRIOTON (V): " L'Egypte (les Peuples de L'orient mediterrancen) TII. Paris - ١٩٢٦.
١١. GARDINER (A.H.): " Egypt of the Pharaohs ", London - ١٩٦١.
١٢. GEORGE (F.H.): " Catalogue of the greek Coins of Arabia Misopotamia and Persia", London - ١٩٢٢.
١٣. HYBROCK (A): "The Red Sea", Institute of Petroleum, London - ١٩٥٦.
١٤. LEBARON BOWEN: " Irrigation in Ancient Archeological Discoveries in South Arabia", Baltimore - ١٩٥٨.
١٥. MICHAEL (M.H.): "A History of the Arabs in the Sudan", Vol 1 London - ١٩٢٢.
١٦. PHILIP (K.H.): "History of the Arabs", London - ١٩٥١.
١٧. PETRIE (M.F.): " Researches in Sinal ", - ١٩٥٠.
١٨. PERHAM (M), AND SIMMON (J): " African Discovery and Anthropology of Exploration", London - ١٩٢٧.
١٩. R. DUSSAUD: " Penetration des Arabes en Syrie ", Paris - ١٩٥٥.

٢٠. RYCKMANN: " L'institution Monarchique en Arabie avant L'Islam". Louvain - ١٩٥١.

٢١. SIR WALLIS SPENCER BUDGE: " A History of Ethiopia ", Vol I. London - ١٩٢٨.

٢٢. TARN AND GRIFFITH: " Hellenistic Civilisation ". Paper Book - ١٩٥٢.

الفهرست

الصفحة	الموضوع
٥	— مقدمة
٧١-٨	[١] علاقة مصر بشرق إفريقيا (الحبشة)
٨	• تمهيد
١٠	• إفريقيا الشرقية أرضاً وطبيعة
١٥	• أسباب اهتمام مصر القديمة بالشرق الإفريقي
١٧	• أهمية موقع مصر وحدودها القديمة
٢٢	• النفوذ المصري في إفريقيا الشرقية في عهد الفراعنة
٤٣	• علاقات مصر بشرق إفريقيا في عهد حكم الأجانب
١١٣-٧٢	[٢] علاقة مصر بجنوب شبه الجزيرة العربية (اليمن)
٧٢	• تمهيد
٧٥	• جنوب شبه الجزيرة العربية أرضاً وطبيعة
٨١	• علاقة مصر بجنوب شبه الجزيرة العربية في عهد الفراعنة
٩٢	• علاقة مصر بجنوب شبه الجزيرة العربية أثناء حكم الأجانب
١١٤	— الخاتمة
١١٩	— المراجع

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم الايداع ٧١٢٤١ / ٩٦

الترقيم الدولى : 2 - 22 - 5789 - 977

اسم الناشر : مكتبة زهراء الشرق

العنوان : ١١٦ شارع محمد فريد - القاهرة

تليفون : ٣٩٢٩١٩٢

الفاكس : ٣٩٢٣٩٠٩



باترى ما الدور الذي لعبته مصر في شرق إفريقيا وجنوب شبه
الجزيرة العربية ؟

تساؤل هام ومثير . إذا علمنا أن مصر كانت لها ظلال
وتأثيرات على كل المنطقة الماطلة على ضفتي البحر الأحمر .
سواءً كان ذلك بتأثيرها الحضاري أو بدورها السياسي
والعسكري .

إن هذا الكلام ينطبق على فترة حكم الأسرات الفرعونية .
كما ينطبق على فترة مجئ قوى أجنبية لحكمت في مصر .
ونقولها صراحة أنه لا يمكن في اعتقادنا أن يلغى كائن من
كان الدور المصري في هاتين المنطقتين . وأنه مما لا شك فيه
مصر بلد الحضارة والتاريخ قد كانت ولا زالت همزة وصل
جنوب شبه الجزيرة العربية والشرق الإفريقي .

المؤلف



To: www.al-mostafa.com